

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة د/ عبد الرحمن بدوي
جمعية د/ عبد الرحمن بدوي للإبداع الثقافي
القاهرة

طبائع الاستبداد

و

مصارع الاستعباد

وهي

كلمات حق وصيحة في واد ان ذهبت اليوم مع الريح
لقد تذهب غدا بالاوتاد



محررها

هو الرحالة . ك

(طبع بمطبعة التوفيق بشارع كلوت بك بمصر)



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى سائر اخوانه المرسلين وعلى اتباعهم هداة الامم الى الحق المبين . وبعد فاقول وانا المضطر للاكتتام حسب الزمان الراجي اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال . انني في سنة ثماني عشر وثلثمائة والف وجدت زائراً في مصر على عهد عزيزها ومعزها حضرة سمي عم النبي العباس الثاني الناشر لواء الحرية على اكناف ملكه فنشرت في بعض الصحف الغراء ابحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد منها ما درسته ومنها ما اقتبسته غير قاصد بها ظالماً بعينه ولا حكومة مخصصة انما اردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون انهم هم المتسببون لما هم فيه

فلا يعتبون على الاغيار ولا على الاقدار وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات . ثم كلفني بعض الاعزاء لجمع شمل تلك الابحاث تعميماً للفائدة فاضفت اليها بعض زيادات وحولتها الى هيئة هذا الكتاب وجعلته هدية مني للناشئة العربية المباركة الابية المعقودة آمال الامة بين نواصيهم ولا غرو فلا شباب الا بالشباب والله ولي المهتدين



مقدمة

لا خفاء ان السياسة علم واسع جدّاً ينقسم الى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى وقلما يوجد انسان يحيط بهذا العلم كما انه قلما يوجد انسان لا يتحكك فيه

وقد وجد في كل الامم المتمدنه علماء سياسيون تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطراداً في مدونات التاريخ او الاخلاق او الادب او الحقوق . ولا تعرف للاقدمين كتب مخصوصة في السياسة لغير الرومانيين الجمهوريين وانما لبعضهم مؤلفات سياسية اخلاقية ككليلة ودمنه ورسائل غوريغوريوس اليوناني ومحررات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج

واما في القرون المتوسطة فلا تؤثر مؤلفات في هذا الفن لغير علماء الاسلام فهم ألفوا فيه ممزوجاً بالاخلاق كالرازي والطوسي والغزالي والعلائي وهي طريقة الفرس وممزوجاً بالادب كالمعري والمتنبي وهي طريقة العرب وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطه وهي طريقة المغاربة .

اما المتأخرون من اهل اوروبا فقد توسعوا في هذا العلم والفوا فيه كثيراً وأشبعوه تفصيلاً حتى انهم افردوا بعض مباحثه في التأليف بمجلدات ضخمة

وقد ميزوا مباحثه الى سياسة عمومية وسياسة خارجية وسياسة داخلية وسياسة ادارية وسياسة اقتصادية وسياسية حقوقية الخ .وقسموا كلاً منها الى ابواب شتى واصول وفروع

واما المتأخرون من الشرقيين فقد وجد من الترك كثيرون ألفوا في اكثر مباحثه تآليف مستقلةوممزوجةمثل احمد جودت باشا وكمال بك وسليمان باشا وحسن فهمي باشا

واما العرب فقليلون ومقلون والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم رفاعه بك وخير الدين باشا التونسي واحمدفارس وسليم البستاني والمبعوث المدني

ولكن يظهر لنا الآن ان المحررين السياسيين من العرب قد كثروا بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائدوالمجلات في مواضيع كثيرة. ولهذا لاح لهذا العاجزان اذكر حضراتهم على لسان الجرائد العربية بموضوع هو اهم المباحث السياسية وقل من طرق بابه منهم الى الآن فادعوهم الى ميدان المسابقة

في خير خدمة ينيرون بها افكار اخوانهم الشرقيين وينبهونهم لا سيما العرب منهم لما هم عنه غافلون . فيفيدونهم بالبحث والتعليل وضرب الامثال والتحليل ما هو حقيقة (داء الشرق ودوائه)

ونظراً الى ان مبني علم السياسة على تعريفه بانه هو « ادارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة » يكون بالطبع اول مباحث السياسة واهمها بحث « الاستبداد » اي التصرف فى الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى

واني ارى ان المتكلم في هذا البحث عليه ان يلاحظ تعريف وتفصيل « ما هو الاستبداد . ما سببه . ما اعراضه . ما تشخيصه . ما سيره . ما انذاره . ما دواؤه » وكل موضوع من ذلك يتحمل تفصيلاً كثيراً وبعضه يتحمل سفراً كبيراً .

وهذه المباحث من حيث مجموعها تنطوي على مسائل كثيرة اسردمنها بعض الامهات وهي . ما طبيعة الاستبداد — لماذا يكون المستبد شديد الخوف — لماذا يستولي الجبن على رعية المستبد — ما تأثير الاستبداد على الدين — على العلم — على المجد — على المال — على الاخلاق — على الترقي — على

التربية — من هم اعوان المستبد — هل يتحمل الاستبداد — كيف يمكن التخلص من الاستبداد — بماذا ينبغي استبدال الاستبداد — ما هي طبائع الاستبداد

ثم اني قبل الخوض في هذه المسائل ألخص النتائج التي تستقر عندها افكار المتكلمين فيها وهي نتائج متحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف المشارب والانظار في الباحثين

فيقول المادي . الداء القوة والدواء المقاومة — ويقول السياسي الداء استعباد البرية والدواء استرداد الحرية — ويقول الحكيم الداء القدرة على الاعتساف والدواء الاقتدار على الاستنصاف — ويقول الحقوقي الدآء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغليب الشريعة على السلطة — ويقول الرباني الداء مشاركة الله في الجبروت والدوآء توحيد الله حقاً

هذه اقوال اهل النظر واما اهل العزائم — فيقول الابي: الدآء مد الرقاب للسلاسل والدوآء الشموخ عن الذل — ويقول الشهم . الدآء التعالي على الناس باطلاً والدوآء تزليل المتكبرين — ويقول المتين . الدآء وجود الرؤساء بلا زمام والدوآء ربطهم بالقيود الثقال — ويقول المفادي الدآء حب الحياة والدوآء حب الموت

ما هو الاستبداد

الاستبداد لغة هو اقتصار المرء على رأى نفسه فيما تنبغي الاستشارة فيه

يراد بالاستبداد عند اطلاقه استبداد الحكومات خاصة لانها هي اقوى العوامل التي جعلت الانسان اشقى ذوي الحياة. واما تحكم رؤساء بعض الاديان وبعض العائلات وبعض الاصناف فيوصف بالاستبداد مجازاً او مع الاضافة

وفي اصطلاح السياسيين هو تصرف فرد او جمع في حقوق قوم بلا خوف تبعة

وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى فيستعملون في مقام كلمة (استبداد) كلمات استعباد واعتساف وتسلط وتحكم. في مقابلتها كلمات شرع مصون. وحقوق محترمة وحس مشترك. وحياة طيبة

ويستعملون في مقام صفة (مستبد) كلمات حاكم بامره. وحاكم مطلق وظالم وجبار وفي مقابلة حكومة مستبدة كلمات عادلة ومسئولة ومقيدة ودستورية

ويستعملون في مقام صفة (مستبد عليهم) كلمات أسرى واذلاء ومستصغرين ومستنبتين (١) وفي مقابلتها محتسبون وأباءة واحرار واحياء

هـذا تعريف الاستبداد باسلوب ذكر المرادفات والمقابلات وأما تعريفه بالوصف فهو ان الاستبداد صفـة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين

ومنشأ الاستبداد إما هو من كون الحـكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة او على أمثلة او على ارادة الامة وهذه حالة الحـكومات المطلقة . واما من كونها مقيدة بنوع من ذلك ولـكنها تملك بنفوذها ابطـال قوة القيد بمـا تهوى وهـذه حالة أكثر الحـكومات التي تسمي نفسها بالمقيدة

واشكال الحـكومة المستبدة كثيرة ليس هذا البحث

(١) الاستنبات او التنبت من اصطلاحات سواس الافرنج يريدون به الحياة الشبيهة بحياة النبات

محل تفصيلها . ويكفي هنا الاشارة الى ان صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة او الوراثة تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيد الوارث او المنتخب متى كان غير محاسب . وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخباً لان الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وانما قد يعدله نوعاً وقد يكون احكم واضر من استبداد الفرد . ويشمل ايضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ لان ذلك ايضاً لا يرفع الاستبداد ولا يخففه ما لم يكن المنفذون مسئولين لدى المشرعين وهؤلاء مسئولون لدى الأمة التي تعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب

وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من اي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها كما جرى في صدر الاسلام فيما نقم على عثمان بن عفان رضي الله عنه وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودريفوس

ومن الامور المقررة انه ما من حكومة عادلة تأمن

المسئولية والمؤاخذة بسبب من اسباب غفلة الامة او اغفالها لها الا وتسارع الى التلبس بصفة الاستبداد وبعد ان تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمتها شيء من القوتين الهائلتين المهولتين جهالة الامة والجنود المنظمة

ولا يعهد في تاريخ حكومة من الحكومات المدنية استمرار حكومة مسئولة مدة اكثر من نصف قرن الى غاية قرن ونصف . وما شذّ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة في انكلترا والسبب يقظة الانكليز الذين لا يسكرهم انتصار ولا يخملهم انكسار . وهذه حضرة الملكة فيكتوريا لو تسنى لها الاستبداد الآن لغنمته ولو لاجل عشرة ايام من بقية عمرها . ولكن هيهات ان تظفر بغرة من قومها تستلم فيها زمام الجيش

اما الحكومات البدوية التي تتألف رعيتها كلها او اكثرها من عشائر يقطنون البادية يسهل عليهم الرحيل والتفرق متى مست حكومتهم حريتهم وسامتهم ضيماً ولم يقووا على الاستنصاف فهذه الحكومات قلما اندفعت الى الاستبداد

واقرب مثال لذلك اهل جزيرة العرب فانهم لا يكادون

يعرفون الاستبداد من قبل عهد ملوك تبع وحمير وغسان الى الآن الاّ فترات قليلة

وقد تكلم الحكماء لا سيما المتأخرون في وصف الاستبداد ودوائه بجمل بليغة بديعة تصوّر في الاذهان شقاء الانسان كأنها تقول له هذا عدوك فانظر ماذا تصنع . ومن هذه الجمل قولهم

المستبد يتحكم في شؤن الناس بارادته لا بارادتهم ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم ويعلم من نفسه انه الغاصب المتعدي فيضع كعب رجله على افواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته

المستبد عدو الحق عدو الحرية وقاتلهما والحق ابو البشر والحرية أمهم والعوام صبية ايتام نيام لا يعلمون شيئاً والعلماء هم اخوتهم الراشدون ان ايقظوهم هبوا وان دعوهم لبوا

المستبد يتجاوز الحد لانه لا يرى حاجزاً فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفاً لما اقدم على الظلم كما قيل الاستعداد للحرب يمنع الحرب

المستبد انسان مستعد بالفطرة للخير والشر فعلى الرعية

ان تكون مستعدة لان تعرف ما هو الخير وما هو الشر . مستعدة لان تقول لا اريد الشر . مستعدة لان تتبع القول بالعمل والقول الذي ليس وراءه فعل هو موجة في الهواء على ان مجرد الاستعداد للفعل فعل يكفي شرّ الاستبداد

المستبد انسان والانسان اكثر ما يألف الغنم والكلاب فالمستبد يود ان تكون رعيته كالغنم دراً وطاعة وكالكلاب تذللاً وتملقاً وعلى الرعية ان تكون كالخيل ان خدمت خدمت وان ضربت شرست بل عليها ان تعرف مقامها هل خلقت خادمة للمستبد ام هي جاءت به ليخدمها فاستخدمها . والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها لتأمن من بطشه فان شمخ هزت به الزمام وان صال ربطته. وفي هذا المقدار كفاية لمعرفة ما هو الاستبداد بالاجمال والمباحث الآتية كافلة بالتفصيل

﴿ الاستبداد والدين ﴾

ورد في المقدمة والتعريف بعض ايضاح للمراد من الاستبداد . على ان معرفة طبائع الاستبداد اجمالاً لا تتم الا باستيفاء الكلام على المباحث التي اشرت اليها ومنها بحث تأثير الاستبداد على الدين . واني تخيرت ان اتكلم في هذه المواضيع اجمالاً واقتضاباً على اسلوب شبيه بالخطابة فاقول

قد تضافرت آراء أكثر المحررين السياسيين من الافرنج على ان الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني والبعض القليل منهم يقول ان لم يكن هناك توليد فلا شك انهما اخوان او صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الانسان . والمشاكلة بينهما ظاهرة من أن أحدهما حاكم في عالم القلوب والآخر متحكم في مملكة الاجسام

والفريقان مصيبان في حكمهم بالنظر الى اساطير الاولين والقسم التاريخي من التوراة والرسائل المضافة الى الانجيل . ومخطئون مطلقاً في حق الاقسام التعليمية منهما كما هم مخطئون

في نظرهم ان القرآن جاء باستبداد مؤيد للاستبداد السياسي او مؤيد به . ولعلهم يعذرون اذا قالوا نحن لا ندرك دقائق القرآن نظراً لخفائها علينا في طي اشاراته وبلاغته . وانما نبني نتيجتنا على مقدمات ما نشاهد عليه المسلمين اليوم من استعانة مستبديهم بالدين

يقول هؤلاء المحررون ان التعاليم الدينية ومنها الكتب السماوية تدعو البشر الى خشية قوة عظيمة هائلة لا تدرك كنهها العقول تتهدد الانسان بكل مصيبة في الحياة وعذاب مديد أو خالد بعد الممات تهديداً ترتعد منه الفرائص فتخور القوى وتنذهل منه العقول فتستسلم للخبل والاوهام . ثم تفتح هذه التعاليم أبواباً للنجاة من تلك المخاوف عليها حجاب من البشر هم الاحبار والقسس والمشايخ : ودخوليتها التعظيم الراتب بالقلب والقالب اي تقديم جزية احترام مع ذلة اعتراف او ثمن غفران او كفالة الرزق من بيت المال لاولئك الحجاب : الذين بعضهم يحجزون حتى الارواح من لقاء ربها ما لم يأخذوا عنها رسوم المرور الى القبور وفدية الخلاص من الاعراف

ويقولون ان المستبدين من السياسيين يبنون استبدادهم

على أساس من هذا القبيل ايضاً لانهم يسترهبون الناس بالتعالي الشخصي والتشامخ الحسي ويذللونهم بالقهر والقوة وسلب الاموال حتى يجعلوهم خاضعين لهم عاملين لاجلهم كأنهم خلقوا من جملة الانعام نصيبهم من الحياة ما يقتضيه حفظ النوع فقط

ويرون ان هذا التشاكل في بناء ونتائج الاستبدادين الديني والسياسي جعلهما في مثل فرنسا خارج باريس مشتركين في العمل كانهما يدان متعاونتان وجعلهما في مثل روسيا مشتبكين في الوظيفة كأنهما القلم والقرطاس اذا استعملا في تسجيل الشقاء على الناس

ويقررون ان هذا التشاكل بين القوتين ينجر بعوام البشر وهم السواد الاعظم الى التباس الاله المعبود والجبار عليهم واختلاطهما في مضايق اذهانهم من حيث التشابه في استحقاق التعظيم والرفعة عن السؤال والمؤاخذة على الافعال . بناءً عليه لا يرون لانفسهم حقاً في مراقبة المستبد

وبعبارة أخرى يجد العوام معبودهم وجبارهم مشتركين في كثير من الحالات والاسماء والصفات وهم هم ليس من

شأنهم ان يفرقوا مثلاً بين الفعال المطلق والحاكم بامره وبين (لا يسئل عما يفعل) و«غير مسئول» وبين «المنعم» و«ولي النعم» وبين «جل شأنه» و«جليل الشأن» بناءعليه يعظمون الجبابرة تعظيمهم لله

وهذه الحال هي التي سهلت في الامم الغابرة المنحطة دعوى بعض المستبدين الالوهية على مراتب مختلفة حسب استعداد اذهان الرعية حتى يقال انه ما من مستبد سياسي الا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله او تعطيه مقام ذي علاقة مع الله . ولا اقل من ان يتخذ بطانة من اهل الدين المستبدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله

ويعللون ان قيام المستبدين من امثال (ابناء داود) و (قسبطنطين) في تأييد نشر الدين بين رعاياهم وانتصار مثل (فيليب الثاني) الاسباني و(هانري الثامن) الانكليزي للدين حتى بتشكيل مجالس انكيزسيون وكالحاكم الفاطمي والسلاطين الاعاجم المنتصرين لغلاة الصوفية والبانين التكايا لم يكن ذلك كله الا بقصد الاستعانة بالدين او باهل الدين على ظلم المساكين ويحكمون بان بين الاستبدادين السياسي والديني مقارنة

لا تنفك متى وجد احدهما في امة جر الآخر اليه او متى زال زال رفيقه . وان ضعف اي صلح احدهما صلح الثاني. وشواهد ذلك كثيرة جداً لا يخلو منها زمان ولا مكان وكلها تبرهن على ان الدين اقوى تأثيراً من السياسة ويمثلون بالسكسون فان البروتستانية اثرت في الاصلاح السياسي اكثر من تأثير الحرية السياسية في الاصلاح عند الكاثوليك

والحاصل ان كل المدققين السياسيين يرون ان السياسة والدين يمشيان متكاتفين ويعتبرون ان أصلاح الدين اسهل منالاً واقوى واقرب طريقاً للاصلاح السياسي

ويرون ان اول من سهل هذا المسلك حكماء اليونان حيث تحيلوا على ملوكهم المستبدين في حملهم على قبول الاشتراك في السياسة باحيائهم عقدة الاشتراك في الالوهية اخذوها عن الاشوريين ومزجوها باساطير المصريين بصورة تخصيص العدالة بآله والحرب باله والبحار باله والامطار باله الى غير ذلك من التوزيع وجعلوا لاله الآلهة حق النظارة عليهم وحق الترجيح عند وقوع الاختلاف بينهم

وبعد تمكن هذه العقيدة فى الاذهان بدا البست من

سحر البيان سهل على اولئك الحكماء دفعهم الناس الى مطالبة جبابرتهم بالنزول من مقام الانفراد وبأن تكون ادارة الارض كادارة السماء فانصاع ملوكهم لذلك مكرهين · وهذه هي الوسيلة العظمى التي مكنت اليونان أخيراً من اقامة جمهوريات أثينا واسبارطه . وكذلك فعل الرومان . وهذا الاصل لم يزل المثال القديم لاصول توزيع الادارة في الحكومات الملكية والجمهوريات على انواعها الى هذا العهد

انما هذه الوسيلة اي التشريك فضلاً عن كونها باطلة في ذاتها نتج عنها اخيراً رد فعل اضر كثيراً . وذلك انها فتحت للمشعوذين من سائر الطبقات باباً واسعاً لدعوى شيء من خصائص الالوهية كالصفات القدسية والتصرفات الروحية . وكان قبل ذلك لا يتهجم على مثلها غير افراد من الجبابرة . وللملاءمة هذه المفسدة لطباع البشر من وجوه كثيرة ليس بحثنا هذا محلها انتشرت وعمت وجندت جيشاً عرمرماً يخدم المستبدين

وقد جاءت التوراة بالنشاط والنظام رافعة عقيدة التشريك في اسباط بني اسرائيل مستبدلة مثلاً اسماء الالهة بالملائكة

ولكن لم يرضَ بعض ملوك بني اسرائيل بالتوحيد فافسدوه.
ثم جاء الانجيل بالدعة والحلم مؤيداً ايضاً الناموس التوحيد ولكن لم يقوَ دعاته الاولون على تفهيم تلك الاقوام المنحطة الذين بادروا لقبول النصرانية قبل الامم المترقية ان الابوة والبنوة صفتان مجازيتان يعبر بهما عن معنى لا يقبله العقل الا تسليماً كمسألة القدر في الاسلامية بل تلقوها منهم بمعنى توالد حقيقي لانهم كانوا قد ألفوا الاعتقاد في بعض جبابرتهم انهم ابناء الله فكبر عليهم ان يعتقدوا في عيسى عليه السلام صفة هي دون مقام أولئك الملوك

ثم ان النصرانية ما لبثت ان تلبست ثوباً غير ثوبها كما هو شأن سائر الاديان التي سلفتها فتوسعت برسائل بولس ونحوها وصارت تعظم رجال الكهنوت الى درجة اعتقاد النيابة والعصمة وقوة التشريع مما رفض اكثره اخيراً البروتستان اي الراجعون في الاحكام لاصل الانجيل

ثم جاء الاسلام بالحكمة والعزم هادماً للتشريك بالكلية ومحكماً لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديموقراطية والاريستوقراطية فأسس التوحيد . واظهر للوجود حكومة

لحكومة الخلفاء الراشدين التي لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر حتى ولم يخلفهم فيها بين المسلمين انفسهم خلف الا بعض شواذ كعمر ابن عبد العزيز والمهتدي العباسي ونور الدين الشهيد

فان هؤلاء الخلفاء الراشدين فهموا معنى القرآن وعملوا به واتخذوه اماماً فانشأوا حكومة قضت بالتساوي حتى بينهم انفسهم وبين فقراء الامة في نعيم الحياة وشظفها واحدثوا في المسلمين عواطف اخوة وروابط هيئة اجتماعية وحالات معيشة اشتراكية لا تكاد توجد بين اشقاء يعيشون باعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة

وهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم اماتة الاستبداد واحياء العدل والتساوي حتى في القصص منه . ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبا من عرب تبع تخاطب اشراف قومها « يا ايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والامر اليك فانظري ماذا تأمرين . قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون »

فهذه القصة تعلم كيف ينبغي ان يستشير الملوك الملأ اي

اشراف الرعية وان لا يقطعوا أمراً الا برأيهم وان تحفظ القوة والبأس في يد الرعية وان يخصص الملوك بالتنفيذ ويكرموا بنسبة الامر اليهم وتعلن شأن الملوك المستبدين واستحقاقهم للمؤاخذة والتقبيح

ومن هذا الباب أيضاً ما ورد في قصة موسى عليه السلام مع فرعون في قوله تعالى « وقال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم يريد ان يخرجكم من ارضكم فماذا تأمرون » أي قال الاشراف بعضهم لبعض ماذا رأيكم (قالوا) خطاباً لفرعون وهو قرارهم « ارجه واخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم » ثم وصف مذاكرتهم بقوله تعالى «فتنازعوا أمرهم » اي رأيهم » بينهم وأسروا النجوى » اي أفضت مذاكراتهم العلنية الى النزاع فاجروا مذاكرة سرية طبق ما يجرى الى الآن في مجالس الشورى العمومية

بناءً عليه لا مجال لرمي الاسلامية بالاستبداد بعد امثال هذه الآيات البينات المفسرات للمراد من قوله تعالى «وشاورهم في الامر » اي في الشأن وكذلك قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » اي شأنهم وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله

وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » اي أصحاب الشأن منكم وهم العلماء والرؤساء على ما اتفق عليه اكثر المفسرين

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى « وما أمر فرعون » اي ما شأنه . وحديث « أميري من الملائكة جبريل» اي مشاوري

وقد ظهر من هـذا ان الاسلامية مؤسسة على أصول الادارة الديموقراطية اي العمومية والشورى الاريستوقراطية اي شورى الاشراف. وقد مضى عهد النبي عليه السلام وعهد الخلفاء الراشدين على هـذه الاصول بأتم واكمل صورها خصوصاً وانه لا يوجد في الاسلامية نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل اقامة الدين . هذا الدين الحرّ السهل السمح الذي رفع الاصر والاغلال وأباد الميزة والاستبداد . الدين الذي ظلمه الجاهلون فهجروا حكمة القرآن ودفنوها في قبور الهوان . الدين الذي فقد الانصار والابرار والحكماء الاخيار فسطا عليه المستبدون واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الامة شيعاً وجعلوه آلة لاهوائهم فضيعوه وضيعوا اهله بالتفريع والتوسيع والتشديد والتشويش وادخال ما ليس منه فيه كما فعل اصحاب الاديان السائرة حتى جعلوه ديناً لا يقوى احد

ممن يتوهم ان كل ما دونوه هو منه على القيام بواجباته وآدابه ومزيداته التي صارت تشتبه مراتبها على العوام والخواص

وبذلك انفتح على الامة باب التلوم على النفس واعتقاد التقصير المطلق وان لا نجاة ولا مخرج ولا امكان لمحاسبة النفس . وهـذه الحال تصغر النفس وتخفت الصوت وتمنع الجسارة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر المنوط بهما قيام الدين وقيام النظام والعدل

وهذا الاهمال للمراقبة والسيطرة والمؤاخذة والسؤال اوسع لامراء الاسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود. وبهذا وذاك ظهر حكم حديث (هلك المتنطعون) اي المتشددون في الدين وحديث (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر او ليستعملنّ الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب) والله الملهم للصواب

وقد جمع بعضهم جملة مما اقتبسه واخذه المسلمون عن غيرهم وليس هو من دينهم فقال

(اقتبسوا) مقام البابوية وتمثيله. واحترام الاعاظم احترام عبادة. وطاعة الكبراء على العمياء (وضاهوا) مقامات البطارقة

والكردينالية والشهداء واسقفية كل بلد (وحاكو) مظاهر القديسين وعجائبهم . والدعاة المبشرين وصبرهم . والرهبنات ورؤسائها . وحالة الاديرة وبادريتها . والرهبنة اي التظاهر بالفقر ورسومها . والحمية وتوقيتها .(وقلدوا) رجال الكهنوت وفي مراتبهم وتميزهم في البستهم وشعورهم (وشاكلوا) مراسم الكنائس وزينتها والبيع واحتفالاتها . والترنيحات ووزنها . والترنمات واصولها واقامة الكنائس على القبور. وشد الرحال لزيارتها . والاسراج عليها . والخضوع لديها . وتعليق الآمال بسكانها (واخذوا) التبرك بالآثار كالقدح والحربة والدستار من احترام الذخيرة وقدسية العكاز . وكذلك امرار اليد على الصدر عند ذكر الصالحين من امرارها على الصدر لاشارة التصليب . (وانتزعوا) الحقيقة من السر . ووحدة الوجود من الحلول . والخلافة من الرسم . والسقيا من تناول القربان. والمولد من الميلاد . وحفلته من الاعياد ورفع الاعلام من حمل الصلبان . وتعليق ألواح الاسماء المصدرة بالنداء على الجدران من تعليق الصور والتماثيل والاستفاضة والمراقبة من التوجه بالقلوب انحناء امام الاصنام . (ومنعوا) الاستهداء

من نصوص الكتاب والسنة من حظر الكهنة الكاثوليك التفهم من الانجيل على غيرهم . وسد اليهود باب الاخذ من التوراة وتمسكهم بالتلمود . (وجاؤا) من المجوسية باستطلاع الغيب من الفلك . وبخشية اوضاع الكواكب وباتخاذاشكالها شعاراً وباحترام النار ومواقدها . (ولفقوا) من الاساطير والاسرائيليات انواعاً من القربات وعلوماً سموها لدنيات

ومن تأمل في هذه المقتبسات يجد اكثرها امهات للاستبداد وسلاسل للاستعباد وهكذا تفسد الاديان ويشقى الانسان ولا حول ولا قوة الا بالله

وكذلك يقال عن مبتدعي النصارى من ان اكثر ما اعتبره المتأخرون منهم من الشعائر الدينية حتى مشكلة التثليث لا اصل له فيما ورد عن نفس المسيح عليه السلام انما هو مزيدات وترتيبات قليلها مبتدع وكثيرها متبع .وقدا كتشف العلماء الآثاريون من الصحف والصفائح التي وجدت في نواويس المصريين الاقدمين على مآخذ اكثرها . وكذلك وجدوا لمزيدات التلمود وبدع الاحبار اصولاً في الاساطير والآثار والالواح الاشورية . وترقوا في التطبيق والتدقيق الى ان

وجدوا معظم الخرافات المضافة الى أصول عامة الاديان في الشرق الادنى مقتبســة من الوضعيات المنسوبة لحكماء الشرق الاقصى

والخلاصة ان البدع التي شوشت الايمان وشوهت الاديان تكاد كلها تتسلسل بعضها من بعض وترمي جميعها الى غرض واحد هو المراد الا وهو الاستبداد

والناظر المدقق في تاريخ الاسلام يجد للمستبدين من الخلفاء والملوك الاولين والعلماء المنافقين افعالاً مريعة في اطفاء نور العلم ويجد انهم طالما ارادوا ان يطفئوا نور الله ولكن ابى الله الا ان يتم نوره . فحفظ للمسلمين كتابه الكريم الذي هو شمس العلوم وكنز الحكم من ان تمسه يد التحريف وهي احدى معجزاته لانه قال فيه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون). فما مسه المنافقون الا بالتأويل وهذا ايضاً من معجزاته لانه اخبر عن ذلك في قوله (فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة (وابتغاء تأويله)

واني امثل للمطالعين ما فعله الاستبداد في العلم والاسلام بما حجر على العلماء الحكماء من ان يفسروا قسمي الآلاء

والاخلاق من القرآن تفسيراً مدققاً لانهم كانوا يخافون مخالفة رأى بعض السلف القاصرين فى العلم فيكفرون فيقتلون وهذه مسألة اعجاز القرآن وهي اهم مسألة في الدين لم يقدروا ان يوفوها حقها من البحث واقتصروا على ما قاله بعض السلف انها هي فصاحته وبلاغته واخباره عن ان الروم من بعد غلبهم سيغلبون

مع انه لو اطلق للعلماء عناء التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما اطلق لاهل التأويل والخرافات لرأوا في الوف من آيات القرآن الوف آيات من الاعجاز : لرأوا فيه كل يوم آية تجدد مع الزمان والحدثان تبرهن اعجازه بصدق قوله « ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » برهان عيان لا مجرد تسليم وايمان

ومثال ذلك ان العلم كشف في هـذه القرون الاخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء اوروبا وامريكا . والمدقق في القرآن يجد اكثرها ورد التصريح او التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً ومابقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء الا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بانه كلام رب لا يعلم الغيب سواه ومن ذلك انهم

قد كشفوا ان مادة الكون هي الاثير وقد وصف القرآن

بدأ التكوين فقال « واستوى الى السماء وهي دخان »

وكشفوا ان الكائنات في حركة دائمة دائبة والقرآن يقول « وآية لهم الارض الميتة احييناها » الى ان يقول «وكل في فلك يسبحون »

وحققوا ان الارض منفتقة من النظام الشمسي والقرآن يقول « ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما »

وحققوا ان القمر منشق من الارض والقرآن يقول « افلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من اطرافها » ويقول اقتربت الساعة وانشق القمر

وحققوا ان طبقات الارض سبع والقرآن يقول »خلق سبع سماوات طباقاً ومن الارض مثلهنّ »

وحققوا انه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعي ان تميد الارض اي ترتج في دورتها والقرآن يقول « ألقي في الارض رواسي ان تميد بكم »

وكشفوا ان التغيير في التركيب الكيماوي بل والمعنوي ناشيء عن تخالف نسبة المقادير والقرآن يقول « كل شيء عنده بمقدار »

« وكشفوا ان للجمادات حياة قائمة بماء التبلور والقرآن يقول « جعلنا من الماء كل شيء حيّ »

وحققوا ان العالم العضوي ومنه الانسان ترقى من الجماد والقرآن يقول « خلقنا الانسان من سلالة من طين »

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات والقرآن يقول « خلق الازواج كلها مما تنبت الارض » ويقول فاخرجنا به ازواجاً من نبات شتى » ويقول « واهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج » ويقول « من كل الثمرات جعل فيها زوجين »

وكشفوا طريقة امساك الظل اي التصوير الشمسي والقرآن يقول « ألم ترَ الى ربك كيف مدالظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً »

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء والقرآن يقول بعد ذكره الدواب والجواري بالريح « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون »

وكشفوا وجود المكروب وتأثيره الجدري وغيره من المرض والقرآن يقول « ارسل عليهم طيراً أبابيل » اي متتابعة

مجتمعة « ترميهم بحجارة من سجيل » اي من طين المستنقعات اليابس الى غير ذلك من الايات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيأة والنواميس الطبيعية . وبالقياس على ما تقدم ذكره يقتضي ان كثيراً من آياته سينكشف سرها في المستقبل في وقتها المرهون تجديداً لاعجازه ما دام الزمان وما كرّ الجديدان

الاستبداد والعلم

ما اشبه المستبد في نسبته الى رعيته بالوصي الخائن القوي على ايتام اغنياء . يتصرف في اموالهم وانفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين فكما انه ليس من صالح الوصي ان يبلغ الايتام رشدهم : كذلك ليس من غرض المستبد ان تتنور الرعية بالعلم

لا يخفى على المستبد ان لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء : فلو كان المستبد طيراً لكان خفاشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل

العلم قبسة من نورالله وقد خلق الله النور كشافاً مبصراً ولاّداً للحرارة والقوة وجعل العلم مثله وضاحاً للخير فضاحاً للشر يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة

المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان اذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الالوية او سحر بيان يحل الجيوش .لانه يعرف ان الزمان ضنين بان تلد الامهات كثيراً من امثال الكميت وحسان او مونتسكيو وشيللار

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده انها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وانما يتلهى بها المتهوسون للعلم . فاذا نبغ فيهم البعض ونالوا شهرة بين العوام لا يعدم وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره بنحو سد افواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد

ثم ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الامم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الادبية وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم المبسقة الشموس المحرقة الرؤوس

ويقال بالاجمال ان المستبد لا يخاف من العلوم كلها بل

من التي توسع العقول وتعرف الانسان ما هو الانسان وماهي حقوقه وهل هو مغبون وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ . المستبد عاشق للخيانة والعلماء عواذله : المستبد سارق ومخادع والعلماء منبهون محذرون وللمستبد اعمال وصوالح لا يفسدها عليه الا العلماء

المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته لان للعلم سلطاناً اقوى من كل سلطان فلا بد للمستبد من ان يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو ارقى منه علماً. ولذلك لا يحب المستبد ان يرى وجه عالم ذكي فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتصاغر المتملق . وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله (فاز المتملقون) بل هذه طبيعة في كل المتكبرين وعليها مبنى ثنائهم على كل من يكون مسكيناً خاملاً لا يرجى لخير ولا لشر

وينتج مما تقدم ان بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً : يسعى العلماء في نشر العلم ويجتهد المستبد في اطفاء نوره . والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم اولئك الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا

العوام هم قوت المستبد وقوته بهم عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول . يأسرهم فيتهللون لشوكته ويغصب اموالهم فيحمدونه على ابقاء الحياة . ويهينهم فيثنون على رفعته ويغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته واذا أسرف بأموالهم يقولون عنه انه كريم واذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيماً ويسوقهم الى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب وان نقم عليه منهم بعض الاباة قاتلوهم كأنهم بغاة

والحاصل ان العوام يذبحون انفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل فاذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع اي انقلب المستبد رغم طبعه الى وكيل امين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام وأب حليم يتلذذ بالتحابب

وحينئذ تنال الامة حياة رضية هنية . حياة رخاء ونماء . حياة عزّ وسعادة . ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ بعد ان كان في دور الاستبداد اشقى العباد لانه كان على الدوام محاطاً بالاعداء ملحوظاً بالبغضاء غير امين على حياته طرفة عين

ولا شك ان خوف المستبد من نقمة رعيته اكثر من

خوفهم بأسه لان خوفه ينشأ عن علم وخوفهم ناشي عن جهل وخوفه من انتقام بحق وخوفهم عن توهم التخاذل وخوفه على فقد حياته وسلطانه وخوفهم على لقيمات من النبات وعلى وطن يألفون غيره في أيام

وكلما زاد المستبد ظلماً واعتسافاً زاد خوفه من رعيته ومن حاشيته وحتى من هواجسه وخيالاته . وكثيراً ما تختم حياة المستبدين الضعيفي القلوب منهم بالجنون

ومن قواعد المؤرخين المدققين ان احدهم اذ ارادالموازنة بين مستبدين كنيرون وتيمور مثلاً يكتفي ان يوازن درجة ما كانا عليه من التحذر والتحفظ .واذا أراد المفاضلة بين عادلين كانوشروان وصلاح الدين يوازن مرتبتي أمنهمافي قوميهما

لما كانت اكثر الديانات القديمة مؤسسة على مبدأي الخير والشر كالنور والظلام والشمس وزحل والعقل والشيطان رأت بعض الامم الغابرة ان أضر شيء على الانسان هوالجهل واضر آثار الجهل هو الخوف فعملت هيكلاً مخصصاً للخوف يعبد اتقاءً لشره

قال أحد المحررين السياسيين اني أرى قصر المستبد في

كل زمان هو هيكل الخوف عينه . فالملك الجبار هو المعبود واعوانه هم الـكهنة ومكتبته هي المذبح المقدس والاقلام هي السكاكين وعبارات التعظيم هي الصلوات والناس هم الاسرى الذين يقدمون قرابين

ويقول اهل النظر في احوال البشر ان خير ما يستدل به على صفة السياسة في الامم شنآن الملوك وفخامة القصور وعظمة الحفلات ومراسم التشريفات

يقولون انه كذلك يستدل على عراقة الامة في الاستبداد أو الحرية باستنطاق لغتها هل هي كثيرة ألفاظ التعظيم غنية في عبارات الخضوع كالفارسية مثلاً أم فقيرة في هذا الباب كالعربية

والخلاصة ان الاستبداد والعلم ضدان متغالبان فكل ادارة مستبدة تسعى جهدها في اطفاء نور العلم وحصر الرعية في حالك الجهل . وكذلك بعض العلماء الذين ينبتون في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير افكار الناس . والغالب ان رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره . وهذا سبب ان كل الانبياء العظام عليهم الصلاة والسلام واكثر العلماء

الاعلام والادباء النبلاء تقلبوا في البلاد وماتوا غرباء

قال المدققون ان اخوف ما يخافه المستبدون الغربيون من العلم ان يعرف الناس حقيقة ان الحرية افضل من الحياة وان يعرفوا النفس وعزها والشرف وعظمته والحقوق وكيف تحفظ والظلم وكيف يرفع والانسانية وما هي وظائفها والرحمة وما هي لذاتها

اما المستبـدون الشرقيون وخوفهم من العلم فافئدتهم هواء يرتجف من صولة العلم وكان اجسامهم من بارود والعلم نار . نعم يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة (لا اله الا الله) . ولماذا كانت افضل الذكر ولماذا بني عليها الاسلام . بني الاسلام بل وكافة الاديان على لا اله الا الله ومعنى ذلك انه لا يعبد حقاً سواه اي سوى الصانع الاعظم ومعنى العبادة التذلل والخضوع فيكون معنى لا اله الا الله (لا يستحق التذلل والخضوع شيء غير الله) فهل والحالة هذه يناسب المستبدين ان يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه كلاّ ثم كلاّ

حتى ان هذا العلم لا يناسب صغار المستبدين كخدمة الاديان الاقوياء او الاغبياء والآباء الجهلاء والازواج الحمقاء

ورؤساء كل الجمعيات الضعيفة . ولهذا ما انتشر نور التوحيد في امة قط الا وتكسرت فيها قيود الاسر ولكن قتل الانسان ما اكفره بنعم مولاه وما اظلمه لنفسه وجنسه

الاستبداد والمجد

من الحكم البالغة للمتأخرين قولهم « الاستبداد أصل لكل فساد » . ومبنى ذلك ان البحث المدقق في احوال البشر وطبائع الاجتماع كشف ان للاستبداد اثراً سيئاً في كل واد

وقد سبق ان الاستبداد يضغط على العقل فيفسده ويلعب بالدين فيفسده . ويحارب العلم فيفسده . واني الآن أبحث في انه كيف يغالب الاستبداد المجد فيفسده ويقيم مقامه التمجد

المجد هو احراز المرء مقام حب واحترام في القلوب وهو مطلب طبيعي شريف لكل انسان لا يترفع عنه نبي او زاهد ولا ينحط عنه دني او خامل . للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند المتفانين في الله وتعادل لذة العلم عند الحكماء وتربو على لذة امتلاك الارض مع قهرها عند الامراء وتزيد

على لذة مفاجئة الاثراء عند الفقراء ولذا يزاحم المجـد في النفوس منزلة الحياة

وقد طالما اشكل على الباحثين أي الحرصين أقوى ؟ حرص الحياة أم حرص المجـد ؟ والحقيقة التي عول عليها المتأخرون وميزوا بها تخليط ابن خلدون هي ان المجد مفضل على الحياة عند الاحرار . وحب الحياة ممتاز على المجد عند الاسراء.وعلى هذه القاعدة يكون ائمة آل البيت عليهم السلام معذورين في القائهم بانفسهم في المهالك لانهم لما كانوا احراراً ابراراً يميزون طبعاً الموت كراماً على حياة ذل ورياء مثل حياة ابن خلدون الذي خطأ امجاد البشر في اقدامهـم على الخطر ناسياً تقريره ان سباع الطير والوحوش تأبي التناسل في اقفاس الاسر بل وجدت فيها طبيعة اختيار الانتحار تخلصاً من قيود الذل

المجد لا ينال الا بنوع من البذل في سبيل الجماعة وبتعبير الشرقين في سبيل الله أو سبيل الدين . وبتعبير الغربيين في سبيل الانسانية أو سبيل الوطنية.والمولى تعالى المستحق التعظيم لذاته ما طالب عبيده بتمجيده الا وقرن الطلب بذكر نعمائه عليهم

وهذا البذل أما بذل مال للنفع العام ويسمى مجد الـكرم

وهو اضعف المجد . أو بذل العلم النافع المفيد للجمعية ويسمى مجد الفضيلة . أو بذل النفس بالتعرض للمشاق والاخطار في سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ويسمى مجد النبالة . وهذا أعلى المجد وهو المراد عند الاطلاق . وهو المجد الذي تتوق اليه النفوس الكبيرة وتحن اليه اعناق النبلاء . وكم له من عشاق لذت لهم في حبه الشهادة واكثرهم يكون من مواليد بيوت الشرف التالد الذي يتصل اوله بعهد الحرية والعدل او يكون من نجباء بيوت ما انقطعت فيها سلسلة المجاهدين انقطاعاً طويلاً . ومن امثلة المجد قولهم خلق الله للمجد رجالاً يستعذبون الموت في سبيله .

وهذا (نيرون) سأل « آغربين » الشاعر وهو تحت النطع من أشقى الناس ؟ فاجابه معرضاً به من اذا ذكر الناس الاستبداد كان مثالاً له في الخيال . وكان (ترابان) العادل اذا قلد سيفاً لقائد يقول له هذا سيف الامة ارجو ان لا اتعدى القانون فلا يكون له نصيب في عنقي . وخرج قيس من مجلس الوليد مغضباً يقول أتريد ان تكون جباراً والله ان نعال الصعاليك لاطول من سيفك . وقيل لاحد الاباة ما فائدة

سعيك غير جلب الشقاء على نفسك فقال ما أحلى الشقاء في سبيل تنغيص الظالمين . وقال آخر عليّ ان أفي بوظيفتي وما عليّ ضمان القضاء . وقيل لاحد النبلاء لماذا لاتبني لك داراً فقال ما أصنع فيها وانا المقيم على ظهر الجواد أو في السجن أو في القبر . وهــذه ذات النطاقين « أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها »وهي امرأة عجوز تودع ابنها الوحيدبقولها ان كنت على الحق فاذهب وقاتل الحجاج حتى تموت

والحاصل ان المجد هو المجد محبب للنفوس لا تفتأ تسعى وراءه وترقى مراقيه وهو ميسر في عهد العدل لـكل انسان على حسب استعداده وهمته . وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم على حسب الامكان

***

ويقابل المجد من حيث مبناه التمجد وما هو التمجـد ؟ وماذا يكون التمجد ؟ التمجد التمجد لفظ هائل المعنى ولهــذا اراني اتعثر بالـكلام واتلعثم في الخطاب لا سيما من حيث أخشى مساس احساس بعض المطالعين ان لم يكن من جهة انفسهم فمن جهة اجدادهم الاولين . فأناشدهم الوجدان والحق

المهان ان يتجردوا دقيقتين من النفس وهواها . ثم هم مثلي ومثل سائر الجانين على الانسانية لا يعدمون تأويلاً . وانني اعلل النفس بقبولهم تهويني هذا فأنطلق واقول

التمجد خاص بالادارات المستبدة وهو القربى من المستبد بالفعل كالاعوان والعمال او بالقوة كالملقبين بنحو دوق وبارون والمخاطبين بنحو رب العزة ورب الصولة اوالموسومين بالنياشين أو المطوقين بالحمائل . وبتعريف آخر التمجد هو ان ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف الانسانية

وبتوصيف اجلى هو ان يتقلد الرجل سيفاً من قبل الجبار يبرهن به على انه جلاد في دولة الاستبداد او يعلق على صدره وساماً مشعراً بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان أو يتحلى بسيور مزركشة تنبيء بانه صار اقرب الى النساء منه الى الرجال . وبعبارة اوضح واخصر هو ان يصير الانسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الاعظم

قلت ان التمجد خاص بالادارات الاستبدادية وذلك لان الحكومة الحرة التي تمثل عواطف الامة تأبى كل الآباء اخلال التساوي بين الافراد الا لموجب حقيقي فلا ترفع قدر

احد منها الا أثناء قيامه في خدمتها اي الخدمة العموميـة كما انها لا تميزه بوسام او تشرفه بلقب الا اعلاناً لخدمة مهمة وفقه الله اليها . وبمثل هذا يرفع الله الناس بعضهم فوق بعض درجات

وهذا لقب اللوردية مثلاً عند الانكليز هو من بقايا عهد الاستبداد ولـكن لا يناله عندهم غالباً الا من يخدم امته خدمة عظيمة ويكون من حيث اخلاقه وثروته اهلاً لان يخدمها خدماً مهمة غيرها ومع ذلك لا اعتبار للورد في نظر الامة الا ما دامت تقرأ في جبهته سطراً محرراً بقلم الوطنيـة وبمداد الشهامة ممضي بدمه يقسم فيه بشرفه انه ضمين ناموس الامة اي قانونها الاساسي : حفيظ على روحها اي حريتها

التمجد لا يكاد يوجد له اثر في الامم القديمة الا في دعوى الالوهية وما بمعناها من نفع الناس بالانفاس او في دعوى الاصلاء نسل الملوك والامراء وانما نشأ التمجد في القرون الوسطى وراج سوقه في القرون الاخيرة الى ان صارت الحرية تغسل ادارنه على حسب قوتها وطاقتها

المتمجدون يريدون ان يخدعوا العامة وما يخدعون الا

انفسهم بانهم احرار في شؤونهم لا يزاح لهم نقاب ولا تصفع منهم رقاب فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمل الاساآت والاهانات التي تقع عليهم من قبل المستبد بل للحرص على كتمها بل على اظهار عكسها بل على مقاومة من يدعي خلافها بل على تغليظ افكار الناس في حق المستبد وابعادهم من اعتقاد ان من شأنه الظلم

وهكذا يكون المتمجدون أعداء للعدل أنصاراً للجور وهذا مايقصده المستبد من ايجاد المتمجدين والاكثار منهم ليتمكن بواسطتهم من ان يغرر الامة على اضرار نفسها تحت اسم منفعتها فيسوقها مثلاً لحرب اقتضاها محض الاستبداد فيوهمها انه يريد نصرة الدين. او يسرف بالملايين من اموال الامة في ملذاته وتأييد استبداده باسم حفظ شرف الامة وأبهة ملكها . او يستخدم الامة في التنكيل باعداء ظلمه باسم انهم اعداء لها . او يتصرف في حقوق الملك والامة كما يشاؤه هواه باسم ان ذلك من مقتضى الحكمة والسياسة

المستبد قد يستمجد بعض افراد من ضعاف القلوب الذين هم كبقر الجنة لا ينطحون ولا يرمحون. يتخذهم كنموذج

البائع الغشاش على انه لا ينتخب العمال والاعوان الا من الاراذل والاسافل. ولهذا يقال دولة الاستبداد دولة الاوغاد. والحكمة في ذلك اظهر من ان تحتاج الى بيان طويل

المستبد قد يستمجد أيضاً بالمناصب والمراتب بعض العقلاء الامناء اغتراراً منه بانهم خبثاء ينفعونه بدهائهم ثم لما يخيب نظره فيهم بعد التجربة يبادر التنكيل بهم او يهجرهم ولهذا لا ينال الحظوة عنده الا الجاهل العاجز او الخبيث الخائن . وهنا انبه فكر المطالعين الى ان هذه الفئة اي العقلاء الذين يذوقون عسيلة مجد الحكومة وينشطون لخدمة الامة ونيل مجد النبالة ثم يضرب على يدهم لمجرد انهم امناء هي الفئة التي تتكهرب بعداوة الاستبداد وينادي افرادها بالاصلاح : وهذا الانقلاب قداعي المستبدين امره لانهم لا يستغنون عن التجربة ولا يأمنون هذه المغبة . ومن هنا نشأ اعتمادهم في التجربة غالباً على العريقين في خدمة الاستبداد الوارثين من آبائهم واجدادهم الاخلاق المرضية للمستبدين ومن هنا ابتدأت في الامم نغمة التمجد بالاصالة والانساب

***

حيث كان للاصالة مشاكلة قوية للمجد والتمجد رأيت ان اتكلم عليها قليلاً ثم اعود لبحث المستبد واعوانه المتمجدين فاقول

الاصالة صفة لا تنكر مزاياها من حيث الاميال التي يرثها الابناء من الآباء : ومن حيث التربية التي تكون مستحكمة في البيت : ومن حيث انها تكون مقرونة بشيء من الثروة المعينة على مظاهر الرحمة والشهامة : ومن حيث انها مدعاة غالباً للتمثل بالاقران مشوقة للتفوق والتميز :ومن حيث تقويتها العلاقة بالامة والوطن : ومن حيث ان اهلها يكونون منظورين دائماً فيتحاشون نوعاً المعائب والنقائص

وبيوت الاصالة تنقسم الى ثلاثة انواع . بيوت علم وفضيلة . وبيوت مال وكرم . وبيوت ظلم وامارة . وهذا الاخير هو القسم الاكثر عدداً والاهم موقعاً وهو مطمح نظر المستبد في الاستعانة وموضع ثقته :فلننظر ماذاهو نصيب هذا القسم من تلك المزايا

هل يرث الابن من جده المؤسس لمجده امياله في العدالة ولم توجد . ام يتربى على غير الوقار الباطل السائد فيما بين

العائله في بيتهم . ام يستخدم الثروة في غير الملاذ البهيمية والابهة الكاسرة لقلوب الفقراء . ام يتمثل بغير اقران السوء المتملقين المنافقين . ام لا يستحقر امته لجهلها قدره ومقامه . ام يرى لجنابه وطناً غير مقاعد التحكم . ام يستحي من الناس ومن هم الناس عنده غير اشباح فيها ارواح

وهذه حالة الاكثرين من الاصلاء على انه لا نبخس حق من نال منهم حظاً من العلم واوتي الحكمة فان هؤلآء وقليل ما هم ينجبون نجابة عظيمة عجيبة . فكانهم يرثون قوة القلب فيستعملونها في الخير لا في الشر ويستفيدون من انفة الكبراء الجسارة على العظماء وهكذا تتحول قوة كل المميزات الى فضل فائض وحسب شامخ ومنها الحنين على الوطن واهله والانين لمصابه والاقدام على العظائم . وامثال هؤلآء النوابغ النجباء اذا كثروا في امة يوشك ان يترقى منهم آحاد الى درجة الخوارق فيقودوا امهم الى النجاح والفلاح ولا غرو فان اجتماع نفوذ النسب وقوة الحسب يفعلان ولا عجب فعل المستبد العادل اي عنقاء مغرب

ثم ان الاصلاء هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل

قبيل لان بني آدم داموا اخواناً متساوين الى ان ميزت الصدفة بعض أفرادهم بكثرة النسل فنشأت منها القوات العصبية . ونشأ من تنازعها تميز افراد على افراد وحفظ هذه الميزة اوجد الاصلاء . فالاصلاء في عشيرة . او امة اذا كانوا متقاربي القوات استبدوا على باقي الناس واسسوا حكومة اشراف . ومتى وجد بيت من الاصلاء يتميز كثيراً على باقي البيوت يستبد وحده ويؤسس الحكومة الفردية المقيدة اذا كان لباقي البيوت بقية بأس او المطلقة اذا لم يبق امامه ما يتقيه

بناء عليه اذا لم يوجد في امة اصلاء بالكلية او وجد ولكن كان لسواد الناس صوت غالب اقامت تلك الامة فعلاً او حكماً لنفسها حكومة انتخابية لا وراثة فيها ابتداء . ولكن لا يتوالى بضع متولين الا ويصير انسالهم اصلاء يتناظرون كل فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الامة استعداداً للمغالبة واعادة التاريخ الاول

ومن اكبر مضار الاصلاء انهم ينهمكون اثناء المغالبة على اظهار الابهة والعظمة يسرهبون اعين الناس ويسحرون عقولهم ويتكبرون بها عليهم . ثم اذا غلب غالبهم واستبد بالامر لا

يتركها الباقون لأنفتهم لذتها ومضاهاة للمستبد . والمستبد نفسه لا يحملهم على تركها بل يدرّ عليهم المال ويعينهم عليها ويعطيهم الالقاب والرتب وشيئاً من النفوذ والتسلط على الناس ليتلهوا بذلك عن مقاومة استبداده ولاجل ان يألفوها مديداً فتفسد اخلاقهم فينفر منهم الناس ولا يبقى لهم ملجأ غير بابه فيصيرون اعواناً له بعد ان كانوا اضداداً

ويستعمل المستبد أيضاً مع الاصلاء سياسة الشد والارخاء والالتفات والاغضاء كي لا يبطروا وسياسة القاء الفساد فيما بينهم كي لا يتفقوا عليه وتارة ينتقم من بعضهم باسم العدالة ارضاء للناس واخرى يستغني عن بعضهم بافراد من اداني الرعية كسراً لشوكتهم . والحاصل ان المستبد يذلل الاصلاء بالترف حتى يجعلهم يترامون بين رجليه ثم يتخذهم لجاماً لتذليل الرعية . ويستعمل عين هذه السياسة مع العمال ورؤساء الاديان . وبهذه السياسة او نحوها يخلو الجو لهذا المستبد يعصف وينسف الرعية كريش يقلبه الصرصر والسموم على اديم من الجمر ولله الامر نعم لله جل شأنه الامر حيث قال (واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق

عليها العذاب)

*
* *

المستبد في لحظة جلوسه على عرشه ووجه تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان انساناً فصار آلهاً . ثم يرجع النظر فيرى نفسه في نفس الامر أعجز من كل عاجز وانه ما نال ما نال الا بواسطة من حوله من الاعوان . فيرفع نظره اليهم فيسمع لسان حالهم يقول له ما الارث .وما العرش .وما التاج. وما الصولجان الا اوهام في اوهام . ما مكنك في هذا المقام وسلطك علي رقاب الانام الا سحرنا وخيانتنا لديننا ووجداننا ووطننا واخواننا فانظر كيف تعيش معنا

ثم يلتفت الى جماهير الرعية المتفرجين فيراهم مسحورين مبهوتين كأنهم اموات من حين . ولكن يتجلى في فكره ان بينهم بعض افراد عقلاء امجاد يخاطبونه بالعيون بان لنا معاشر الامة شؤوناً وكلناك في قضائها على ما نريد ونبغي لا على ما تريد فتبغي

وعندئذ يرجع المستبد الى نفسه قائلاً الاعوان الاعوان أسلمهم القيام وأردهم بجيش من الاوغاذ أحارب بهم هؤلاء

الامجاد . وبغير هذا الحزم لا يدوم لي استبداد ولا استعباد

الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها من المستبد الاعظم الى الشرطي الى الفراش الى كناس الشوارع ولا يكون كل صنف الا من اسفل اهل طبقته اخلاقاً لان الاسافل لا يهمهم جلب محبة الناس انما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بانهم على شاكلته وانصار لدولته وشرهون لاكل السقطات من ذبيحة الامة . وبهذا يأمنهم ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه. وهذه الفئة المستبدة يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته . فكلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج الى زيادة جيش المتمجدين العاملين له والمحافظين عليه. واحتاج الى الدقة في اتخاذهم من اسفل السافلين الذين لا اثر عندهم لدين او وجدان واحتاج لحفظ النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكوسة وهي ان يكون اسفلهم طباعاً اعلاهم وظيفة وقرباً

***

ان العقل والتاريخ والعيان كل يشهد بان الوزير الأعظم المستبد هو اللئيم الاعظم في الامة ثم من دونه من الوزراء

يكونون دونه لؤماً وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات. وربما يغتر المطالع كما اغتر بعض المؤرخين البسطاء بأن كثيراً من وزراء المستبدين كانوا يتأوّهون من من المستبد ويتشكون من اعماله ويجهرون بملامه ويظهرون لو أنه ساعدهم الامكان لعملوا وفعلوا وافتدوا الامة بأموالهم بل وحياتهم فكيف والحالة هذه يكون هؤلاء اكثر الأمة لؤماً بل كيف ذلك ومنهم الذين خاطروا بأنفسهم والذين أقدموا على مقاومة الاستبداد فنالوا المراد او بعضه او هلكوا دونه

فجواب ذلك ان المستبد حريص على ظلم الناس وهو محتاج لعصابة تعينه . فهل يجوز العقل انه ينتخب لعصابته من يشك فيه انه لا يوافقه على مراده . كلا . هل ينتخب وزيراً له من السوقة لم تسبق له تجربة ولا معرفة ما انطوى عليه. كلا. هل يمكن ان يكون الوزير متخلقاً بالخير حقيقة وبالشر ظاهراً فيخدع المستبد باعماله وهو هو الذي أعزه بكلمة ويعزله بكلمة. كلا . المستبد وهو من لا يجهل ان الناس اعداؤه لظلمه فهل يأمن على بابه من لا يثق به انه اظلم منه وابعد منه عن اعدائه . كلا

ثم كيف يكون الوزير أميناً من صولة المستبد اذا لم يكن بينهما وفاق واتفاق على خيرة الشيطان حال كون الوزير محسوداً بالطبع يتوقع له المزاحمون كل شر ويبغضه الناس ولو تبعاً لظالمهم وهو هدف في كل ساعة للشكايات المحقة والوشايات المحرقة . أم كيف يكون عند الوزير شيء من التقوى او الحياء او العدل او الوجدان او الحكمة او المرحمة ويقبل ان يكون جلاداً للمستبد .

أم كيف يكون عند الوزير نزعة من الشفقة والرأفة على الامة وهو العالم بأنها تبغضه وتمقته وتتوقع له كل سوء ما لم يتفق معها على المستبد وما هو بفاعل ذلك ابداً الا اذا يئس من اقباله عنده . وان فعل فلا يقصد نفع الامة انما يريد تهديد المستبد او فتح باب لمستبد جديد عساه يستوزره فيوازره على وزره

والنتيجة ان وزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الامة كما في الحكومات الدستوريه . ومثله المشير هو مشير للمستبد مغير على الامة لا غيوراً عليها . خصوصاً وهو الذي يعلم من نفسه ان المستبد قلده السيف وهو لم يدفع عنه صائلاً

ولا فتح له فتحاً مبيناً وانما عاهده على استعمال هذا السيف في رقاب اعداء استبداده وما هم الا الامة المسكينة

بناء عليه لا يغتر احد من العقلاء بما يتشدق به الوزراء والقواد من الانكار على الاستبداد والتفلسف بالاصلاح وان تلهفوا وان تأففوا . ولا يخدع النبهاء لهم وان ناحوا وان بكوا.ولا يثقون بهم وبوجدانهم مهما صلوا وسبحوا . لان ذلك كله ينافي سيرهم وسيرتهم ولا ضامن على انهم اصبحوا يخالفون ما شبوا وشابوا عليه هم اقرب ان لا يقصدوا بتلك المظاهر غير تهديد المستبد واستدرار دماء الرعية اي اموالها . نعم كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير انه يريد القاء سيفه للامة لتكسره . وهو قد الف عمراً طويلاً لذة البذخ وعزة الجبروت . وهو من تلك الامة التي قتل الاستبداد فيها كل الاميال الشريفة العالية حتى صار الفلاح التعيس يؤخذ للجندية وهو يبكي فلا يكاد يلبس كمّ ثوبها الا ويتنمر على امه وابيه ويتمرد على اهل قريته وذويه ويكظ اسنانه عطشاً للدماء لا يميز بين اخ او عدوّ

ولنذكر بعض الدلائل القطعية الدامغة التي تثبت ان

كل رجال عهد الاستبداد لا خلاق لهم ولا حمية ولا يرجى منهم خير مطلقاً . وان كل ما يتظاهرون به احياناً من التذمر والتألم يقصدون به تغرير وخداع الامة المسكينة ويطمعهم في انخداعها لهم علمهم بأن الاستبداد القائم في الحقيقة بهم والذي سيدوم ايضاً بهمتهم قد اعمى ابصار الامة وبصائرها وخدر اعصابها فهي لا ترى الا هولاً محيطاً ولا تشعر الا بألم عام فتئن من البلاء ولا تدري من اين جاءها . فتواسيها فئة باسم الدين يقولون لها هذا قضاء جاء من السماء فلا مردّ له بغير الصبر والرضاء ويغرّرها آخرون وهم أولئك الاعاظم المتوجعون بانهم اطباء المرض ويهتمون بازالته ومتحمسون لانقاذ الامة من تلك الملمة : وهم وأيم الحق كذابون مخادعون لا يريدون الا التضليل دائماً وتهديد المستبد احياناً

فمن تلك الدلائل انهم لا يستصنعون الا الاسافل الاراذل ولا يميلون لغير المتملقين المنافقين كما هو شأن صاحبهم المستبد الاكبر . ومنها انه قد يوجد منهم من لا يتنزل لقليل الرشوة ولكن لا يوجد فيهم من يأبى كثيرها . ومنها ان ليس فيهم غير المستبيح مشاركة المستبد في امتصاص دم الامة ذلك

بأخذهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة التي تعادل بضع اضعاف ما تسمح به الادارة العادلة لامثالهم . ومنها انهم لا يصرفون شيئاً ولو سراً من هذه الاموال الطائلة في سبيل مقاومة الاستبداد الذي يزعمون انهم اعداؤه ومنها ان احدهم قد يكون مسرفاً مبذراً فلا تكفيه الرواتب المعتدلة التي يمكن ان ينالها في ظل شجرة العدالة . ومنها انه قد يكون شحيحاً مقتراً في نفقاته بحيث يخل في شرف مقامه فلا يصرف نصف او ربع راتبه مع انه يقبضه زائداً على اجر مثله بحجة حفظ شرف المقام العائد لشرف الامة وبهذا الشح يكون خائناً ومهيناً

هذا ولا ينكر التاريخ ان الزمان اوجد نادراً بعض وزراء ندموا على مافرطوا فتابوا واانابوا ورجعوا الصف الامة واستعدوا للكفارة المسيحية او الشهادة الاسلامية . كما ويوجد في كل زمان بعض شواذ من الوزراء والقواد عريقين في الشهامة فيظهر فيهم سر الوراثة ولو بعد الاربعين وربما السبعين ظهوراً بيناً تتلألأ في محياه ثريا الاخلاص

والنتيجة ان المستبد فرد عاجز لا قوة فيه ولا حول له الا بالمتمجدين . والامة المأسورة ليس لها من يحك جلدها

غير ظفرها ولا يقودها الا العقلاء بالتنوير والاهداء حتى اذا اكفهرت سماء عقول بنيها قيض الله لها منها قادة ابراراً يشترون لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم حيث جعل الله في ذلك لذتهم ولمثله خلقهم : كما خلق آخرين فساقاً فجاراً مهالكهم الشهوات والمثالب فسبحان الذي يختار من يشاء لما يشاء وهو الخلاق العظيم

الاستبداد والمال

لو كان الاستبداد رجلاً واراد ان يحتسب وينتسب لقال « انا الشرّ ابي الظلم وامي الاساءة واخي الغدر واختي المسكنة وعمي الضر وخالي الذل وابني الفقر وبنتي البطالة ووطني الخراب وعشيرتي الجهالة . »

ويصح في وصف المال ان يقال . القوة مال والعقل مال والعلم مال والدين مال والثبات مال والجاه مال والجمال مال والترتيب مال والاقتصاد مال . والحاصل كل ما ينتفع بثمرته الانسان هو مال . وكل هذه الاسباب وثمراتها معرضة لافساد الاستبداد ومجلبة فيه للوبال

ان النظام الطبيعي في كل الحيوانات حتى في السمك والهوام الا العنكبوت بعد اخصابه، ان النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضاً والانسان يأكل الانسان. ومن غريزتها ان تلتمس الرزق من الله اي من مورده الطبيعي والانسان حريص على التماسه من اخيه

عاش الانسان دهراً طويلاً يأكل لحم الانسان فعلاً الى ان تمكن حكماء الصين والهند من ابطال اكل اللحم كلياً والى ان جاءت الشرائع الدينية الاولى في الجهات السائرة ابتداء بتخصيص ما يؤكل من الانسان بالقربان الذي يذبح للمعبود . ثم ابقت القربان وجعلت الذبيحة طعمة للنيران حتى تدرج الانسان الى نسيان لذة لحم اخوانه . وقد استبدل الله عز شأنه على يد ابراهيم عليه السلام قربان البشر بالحيوان واتبعه موسى وباقي الانبياء عليهم السلام وبه جاء الاسلام . اما عيسى عليه السلام فانه استعاض قربان الحيوان بالخبز ولكن بقي ذلك مقصوراً على الكنائس ولم يعم

وهكذا بطل اكل الانسان لحم الانسان الا عند بعض قبائل الزنوج فانه موجود حتى الآن . على ان الاستبداد

المشؤوم أحيا سنة اكل البشر بشكل أدهى وأمر . وذلك انه جعل الاقوام طعمة للظالمين فكان الاولون يذبحون ويأكلون من يأسرون من أعدائهم فقط والمستبدون يأسرون جماعتهم ويذبحونهم فصداً بمبضع الظلم ويمتصون دماء حياتهم بغصب اموالهم ويقصرون أعمارهم باستخدامهم سخرة في اعمالهم او بغصب ثمرات اتعابهم . وهكذا لا فرق بين الاولين والآخرين في نهب الاعمار وازهاق الارواح الا في الشكل

ان بحث الاستبداد والمال بحث قوي العلاقة بالظلم القائم في فطرة الانسان ولهـذا رأيت ان لا بأس في الاستطراد لمقدمات تتعلق نتائجها بالاستبداد الاجتماعي المحمي بقلاع الاستبداد السياسي . فمن ذلك

ان البشر المقدر مجموعهم بالف وخمسمائة مليون نصفهم كلّ على النصف الآخر ويشكل اكثرية هذا النصف : نساء المدن. ومن النساء: النساء هنّ النوع الذي عرف مقامه في الطبيعة بانه هو الحافظ لبقاء الجنس وانه يكفي للالف منه ملقح واحد وان باقي الذكور يساقون للمخاطر والمشاق او يستحقون مايستحقه ذكر النحل. وبهذا النظر اقتسمنَ النساء مع الذكور اعمال الحياة

قسمة ضيزى وتحكمنَ بسنّ قانون عام به جعلنَ نصيبهنّ هين الاشغال بدعوى الضعف. وجعلنَ نوعهنّ مطلوباً عزيزاً بايهام العفة . وجعلنَ الشجاعة والكرم سيئتين فيهنّ محمدتين في الرجال . وجعلنَ نوعهنّ يهين ولا يهان ويظلم او يظلم فيعان. وعلى هذا القانون يربون البنات والبنين ولهذا سماهم بعض الاخلاقيين بالنصف المضرّ. وقال ان الضرر يترقى مع الحضارة والمدنية على نسبة الترقي المضاعف . فالبدوية تسلب الرجل نصف ثمرة اعماله . والحضرية تسلب اثنين من ثلاث. والمدنية تسلب خمسة من ستة . وهكذا تترقى بنت العواصم

ثم ان رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة أيضاً فان رجال السياسة والاديان ومن يلتحق بهم وعددهم لا يتجاوز الواحد في المائة يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر او زيادة ينفقونه في الرفه والاسراف . مثال ذلك انهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها أحياناً ولا يفكرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام

ثم اهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهون والمحتكرون وامثال هذه الطبقة ويقدرون كذلك بواحد في

المائة يعيش احدهم بمثل ما يعيش به العشرات او المئات او الالوف من الصناع والزراع . وهذه القسمة المتفاوتة بين آدم وحوّاء الى هذه النسبة المتباعدة هي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي .

نعم لا يقتضي ان يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع او الصنعة المفيدة بذاك الجاهل النائم في ظل الحائط ولا المجتهد المخاطر بالكسول الخامل ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت بل تقتضي الانسانية ان يأخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته

بسط المولى جلت حكمته سلطان الانسان على الاكوان فطغى وبغى ونسي ربه وعبد المال والجمال وجعلهما منيته ومبتغاه كأنه خلق خادماً لبطنه وعضوه فقط لا شأن له غير الغذاء والتحاك . وبالنظر الى ان المال هو الوسيلة الموصلة للجمال كاد ينحصر اكبر همّ للانسان في جمع المال . ولهذا يكنى عنه بمعبود الامم وبسر الوجود وروى كريسو المؤرخ الروسي ان كاترينا شكت كسل رعيتها فارشدت الى حمل النساء على الخلاعة ففعلت واحدثت كسوة المراقص فهب الشبان للعمل وكسب

المال لصرفه على ربات الجمال وفي ظرف خمس سنين تضاعف دخل خزينتها فاتسع لها مجال الاسراف . وهكذا المستبدون لا تهمهم الاخلاق انما يهمهم المال

المال عند الاقتصاديين ما ينتفع به الانسان وعند الحقوقيين ما يجري فيه المنع والبذل وعند السياسيين ما تستعاض به القوة وعند الاخلاقيين ما تحفظ به الحياة الشريفة . المال يستمد من الفيض الذي اودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها. ولا يملك اي لا يتخصص بانسان الا بعمل فيه او في مقابلة

التمول اي ادخار المال طبيعة في بعض انواع قليلة من الحيوانات الدنيئة الضعيفة كالنمل والنحل ولا أثر لطبيعة التمول في الحيوانات المرتقية غير الانسان فانه تطبع عليه. الانسان تطبع على التمول لدواعي الحاجة المحققة او الموهومة ولا تحقق للحاجة الا عند سكان الاراضي الضيقة الثمرات على اهلها او الاراضي المعرضة للقحط في بعض السنين. ويلتحق بالحاجة المحققة حاجة العاجزين قسماً عن التمول في البلاد المبتلاة بجور الطبيعة او جور الاستبداد . وربما يلتحق بها أيضاً الصرف على المضطرين وعلى المصارف العمومية في البلاد التي ينقصها الانتظام العام

والمراد بالانتظام العام معيشة الاشتراك العمومى التي جاء بها الاسلام ولكن لم تدم اكثر من قرنين كان فيهما المسلمون لا يجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفارات . وذلك ان الاسلامية كما اسست حكومة ديمقراطية وقد سبق ايضاحها اسست ايضاً اصول هـذه المعيشة التي يتمنى ما هو من نوعها اغلب العالم المتمدن الافرنجي مع انه تسعى وراءها منهم جمعيات منتظمة مكونة من ملايين كثيرة ومع ان لها نوع من الاصل في الانجيل وهو تخصيص عشر الاموال للمساكين

وهذه الجمعيات تطلب التساوي او التقارب في الحقوق والحالة المعاشية بين البشر وتسعى ضدّ الاستبداد المالي .ذلك التساوي والتقارب المقروان في الاسلامية ديناً بوسيلة أنواع الزكاة وتقسيمها على انواع المصارف العامة وانواع المحتاجين ولا يخفى على المدقق ان جزءاً من اربعين من رؤوس الاموال يلحق فقراً الامة باغنيائها ويمنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد المضرة باخلاق الافراد.وكذلك تركت الاسلامية معظم الاراضي الزراعيـة ملـكاً لعامة الامة يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط وليس عليهم غير العشر او الخراج

الذي لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال

ثم ان التمول لاجل الحاجات السالفة الذكر وبقدرها فقط محمود بثلاثة شروط والاّ كان حرص التمول من اقبح الخصال . الشرط الاول ان يكون احراز المال بوجه مشروع حلال اي باحرازه من بذل الطبيعة او بالمعارضة أو في مقابل عمل او في مقابل ضمان

والشرط الثاني ان لا يكون في التمول تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات او مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء او التغلب على المباحات مثل امتلاك الاراضي التي جعلها خالقها ممرحاً لكافة مخلوقاته وهي امهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها وتأويهم في حضن أجزائها فجاء المستبدون الظالمون الاولون ووضعوا اصولاً لحمايتها من ابنائها وحاولوا بينهما فهذه ايرلانده مثلاً قد حماها الف مستبد مالي من الانكليز ليتمتعوا بثلثي او ثلاثة ارباع ثمرات اتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة ايرلانده.وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالاً وستفوقها مآلاً . وكم من البشر في اوروبا المتمدنة وخصوصاً في لندره لا يجد احدهم ارضاً ينام

عليها متمدداً بل ينامون في الطبقة السفلى حيث لا ينام البقر وهم قاعدون صفوفاً يعتمدون بصدورهم على حبال من مسد منصوبة أفقية فيتلوّون عليها يمنةً ويسرةً

وحكومة الصين المختلة النظام في نظر المتمدنين لا تجيز قوانينها ان يمتلك الشخص الواحد اكثر من مقدار معين من الارض لا يتجاوز العشرين كيلو متراً مربعاً اي اقل من خمسة افدنة مصرية . وروسيا المستبدة القاسية في عرف اكثر الاوروبيين وضعت اخيراً لولاياتها البولونية والغربية قانوناً أشبه بقانون الصين وزادت عليه انها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاح ولا تأذن لفلاح ان يستدين اكثر من نحو خمسمائة فرنك وحكومات الشرق اذا لم تستدرك الامر فتضع قانوناً من قبيل قانون روسيا تصبح الاراضي الزراعية بعد خمسين عاماً او قرن على الاكثر كايرلانده الانكليزية المسكينة التي وجدت في مدى ثلاثة قرون شخصاً واحداً حاول ان يرحمها فلم يفلح واعني به غلادستون. على ان الشرق ربما لا يجد في ثلاثين قرناً من يلتمس الرحمة له

والشرط الثالث لجواز التمول . هو ان لا يتجاوز المال

قدر الحاجة بكثير لان افراط الثروة مهلكة للاخلاق الحميدة في الانسان فانه ليطغي ان رآه استغنى . والشرائع السماوية كلها وكذلك الحكمة السياسية والاخلاقية والعمرانية حرّمن الربا بقصد حفظ التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية لان الربا هو كسب بدون مقابل مادي ففيه معنى الغصب وبدون عمل ففيه الالفة على البطالة المفسدة للاخلاق وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والاملاك . ومن المشاهد الذي لا خلاف فيه ان ليس من كسب لا عار فيه اربح من الربا مهما كان معتدلاً وان بالربا تربو الثروات فيختل التساوي بين الناس

وقد نظر الماليون والاقتصاديون في امر الربا فقالوا ان المعتدل منه نافع بل لا بد منه . اولاً لاجل قيام المعاملات الكبيرة . وثانياً لاجل ان النقود الموجودة لا تفي للتداول فكيف اذا امسك المكتنزون قسماً منها ايضاً . وثالثاً لاجل ان كثيرين من المتمولين لا يعرفون طرائق الاسترباح او لا يقدرون عليها كما ان كثيراً من العارفين بها لا يجدون رؤوس اموال ولا شركاء عنان . فهذا النظر صحيح من وجه انماء

ثروات الافراد والامم اما السياسيون والاخلاقيون فينظرون الى ان ضرر ذلك في جمهور الامم اكبر من نفعها لان هذه الثروات الافرادية تمكن الاستبداد الداخلي فتجعل الناس صنفين عبيداً واسياداً وتقوي الاستبداد الخارجي فتسهل التعدي على حرية واستقلال الامم الضعيفة مالا وعدةً . وهذه مقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة ولذلك حرمت الديانات الربا تحريماً مغلظاً

حرص التمول وهو الطمع القبيح يخف كثيراً عند اهالي الحكومات العادلة المنتظمة ما لم يكن فساد الاخلاق متغلباً على الاهالي كاكثر الامم المتمدنة في عهدنا لان فساد الاخلاق يزيد في الميل الى التمول في نسبة الحاجة الاسرافية . ولكن تحصيل الثروة في عهد الحكومة العادلة عسر جداً وقد لا يتأتى الا من طريق المراباة مع الامم المنحطة او التجارة الكبيرة التي فيها نوع احتكار او الاستعمار في البلاد البعيدة مع المخاطرات

وهذا الحرص القبيح يشتد كثيراً في رؤوس الناس في عهد الحكومات المستبدة حيث يسهل فيها تحصيل الثروة

بالسرقة من بيت المال وبالتعدي على الحقوق العامة وبغصب ما في ايدي الضعفاء ونحو ذلك من الوسائل المقدورة لكل انسان ترك الدين والوجدان والحياء جانباً وانحط في اخلاقه الى ملائمة المستبد الاعظم أو أحد أعوانه وعماله . ويكفيه ان يتصل بباب احدهم ويتقرب من اعتابه ويظهر له انه في الاخلاق من امثاله وعلى شاكلته . ويبرهن له ذلك باشياء من التملق وشهادة الزور وخدمة الشهوات والتجسس والدلالة على السلب ونحو ذلك . ثم بعد ان يتمكن ويطلع على بعض الخفايا والاسرار التي يخاف المستبد من ظهورها خوفاً حقيقياً او وهمياً يكسب هذا المنتسب رسوخ القدم بل يصير هو باباً لغيره . وهكذا يحصل على الثروة الطائلة اذا ساعدته الظروف على الثبات طويلاً . وهذا اعظم ابواب الثروة في الشرق والغرب ويليه الاتجار بالدين ويليه الربا ثم الملاهي

وقد ذكر المدققون ان ثروة بعض الافراد في الحكومات العادلة اضر كثيراً منها في الحكومات المستبدة لان الاغنياء في الاولى يصرفون قوتهم المالية في افساد اخلاق الناس واخلال المساواة وايجاد الاستبداد أما الاغنياء في الحكومات

المستبدة فيصرفون ثروتهم في الابهة والتعاظم ارهاباً للناس وتعويضاً للسفالة الحقيقية بالتعالي الباطل ويسرفون الاموال في الفسق والفجور .

بناء عليه ثروة هؤلاء يتعجلها الزوال حيث يغصبها الاقوى منهم من الاضعف . وتزول ايضاً والحمد لله قبل ان يتعلم اصحابها او ورثتهم كيف تحفظ الثروات وكيف تنمو وكيف يستعبدون بها الناس استعباداً اصولياً مستحكماً كما هو الحال في اوربا المتمدنة المهددة بشروط الفوضويين بسبب اليأس من مقاومة الاستبداد المالي فيها

ولنرجع الى بحث طبيعة الاستبداد في مطلق المال فنقول.ان الاستبداد يجعل المال في ايدي الناس عرضة لسلب المستبد وأعوانه وعماله غصباً أو بحجة باطلة وعرضة أيضاً لسلب المعتدين من اللصوص والمحتالين الراتعين في ظل أمان الاستبداد.وحيث المال لا يحصل الا بالمشقة فلا تختار النفوس الاقدام على المتاعب مع عدم الامن على الانتفاع بالثمرة

حفظ المال في عهد الادارة المستبدة أصعب من كسبه لان ظهور أثره على صاحبه مجلبة لانواع البلاء عليه . ولذلك

يضطرّ الناس زمن الاستبداد لاخفاء نعمة الله والتظاهر بالفقر والفاقة . ولهـذا يقال في امثال هؤلاء ان حفظ درهم من الذهب يحتاج الى قنطار من العقل. ويقال العاقل من يخفي ذهبه وذهابه ومذهبه ويقال اسعد الناس الصعلوك الذي لا يعرف الحكام ولا يعرفونه

ومن طبائع الاستبداد ان الاغنياء اعداءه فكراً واوتاده عملاً فهم ربائط المستبد يذلهم فيأنون ويستدرهم فيحنون. ولهذا يرسخ الذل في الامم التي يكثر اغنياؤها اما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ويتحبب اليهم ببعض الاعمال التي ظاهرها الرأفة يقصد بذلك ان يغصب ايضاً قلوبهم التي لا يملكون غيرها. والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة خوف البغاث من العقاب فهم لا يجسرون على الافتكار فضلاً عن الانكار كأنهم يتوهمون ان داخل رؤوسهم جواسيس عليهم . وقد يبلغ فساد الاخلاق في الفقراء ان يسرهم فعلاً رضاء المستبد عنهم باي وجه كان رضاؤه

قيل في مدح المال ان اكبر ما يحل المشكلات الزمان والمال . وقالوا لا يصان الشرف الا بالدم ولا يتأتى العز الا

بالمال . وورد في الاثر : ان اليد العليا خير من اليد السفلى . وان الغني الشاكر افضل من الفقير الصابر. ولم يكن قديماً اهمية للثروة العمومية اما الآن وقد صارت المحاربات محض مغالبات علم ومال فاصبح للثروة العمومية اهميـة عظمى لاجل حفظ الاستقلال على ان الامم المأسورة لا نصيب لهـا من الثروة العمومية فاصبحت منزلتهـا في المجتمع الانساني كالانعام تتناقلها الايدي.

هذا وللمال الكثير آفات على الحياة الشريفة ترتعد منها فرائص اهل الفضيلة والكمال الذين يفضلون الكفاف من الرزق مع حفظ الحرية والشرف على امتلاك دواعي الترف والسرف . وينظرون الى المال الزائد عن الحاجة انه بلاء في بلاء في بلاء . اي انه بلاء من حيث التعب في تحصيله وبلاء من حيث القلق على حفظه وبلاء من حيث ربطه صاحبه على وتد الاستبداد . واما المكتفي فيعيش مطمناً مستريحاً اميناً بعض الامن على دينه وشرفه واخلاقه

قرّر الاخلاقيون ان الانسان لا يكون انساناً ما لم تكن له صنعة مفيدة تكفي معاشه باقتصاد لا تنقصه فتذله ولا تزيد

عليه فتطغيه . وهذا معنى الحديث (فاز المخفون) وحديث (اسألوا الله الكفاف من الرزق) ويقال الغني غني القلب . والغني من قلت حاجته . والغني من استغنى عن الناس . قال بعض الحكماء كل انسان فقير بالطبع ينقصه مثل ما يملك فمن يملك عشرة يرى نفسه محتاجاً لعشرة أخرى ومن يملك الفاً يرى نفسه محتاجاً لالف اخرى . وهذا معنى الحديث (لو كان لابن آدم واد من ذهب «وفي رواية من غنم» لتمنى ان يكون له واد آخر)

ولا يقصد الاخلاقيون من التزهيد في المال التثبيط عن كسبه انما يقصدون ان لا يتجاوز كسبه الطرائق الطبيعية الشريفة . أما المستبدون فلا يهمهم الا أن تستغني الرعية بأي وسيلة كانت والغربيون منهم يعينون الامة على الكسب والشرقيون لا يفتكرون في ذلك وهذه من جملة الفروق بين الاستبدادين الغربي والشرقي التي منها ان الاستبداد الغربي يكون أحكم وأرسخ وأشد ولكن مع اللين . والشرقي يكون مقلقلاً سريع الزوال ولكنه مزعجاً . ومنها ان الغربي اذا زال تبدل بحكومة عادلة تقيم ما ساعدت الظروف ان تقيم . اما

الشرقي فيزول ويخلفه استبداد شرّ منه لان من دأب الشرقيين ان لا يفتكروا في مستقبل قريب كأن أكبرهمهم منصرف الى ما بعد الموت فقط

وخلاصة القول ان الاستبداد داءاشدّ وطأةً من الوباء: أكثر هولاً من الحريق : أعظم تخريباًمن السيل اذل للنفوس من السؤال . داء اذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادي القضاء القضاء والارض تناجي ربها بكشف البلاء . كيف لا تقشعر الجلود من الاستبداد وعهده عهد أشقى الناس فيه العقلاء والاغنياء واسعدهم بحياه الجهلاءوالفقراء بل أسعدهم اولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الاحياء

الاستبداد والاخلاق

الاستبداد يتصرف في أكثرالاميال الطبيعية والاخلاق الحسنة فيضعفها او يفسدها او يمحوها فيجعل الانسان يكفر بنعم مولاه لانه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد ويجعله حاقداً على قومه لانهم عون الاستبداد عليه . وفاقداً حب وطنه لانه غير آمن على الاستقرار ويود لو انتقل منه .

وضعيف الحب لعائلته لانه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها. ومختل الثقة في صداقة احبابه لانه يعلم منهم انهم مثله لا يملكون التكافؤ وقد يضطرون لاضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون . أسير الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه لانه لا يملك مالاً غير معرض للسلب ولا شرفاً غير معرض للاهانة . ولا يملك الجاهل منه آمالاً مستقبلة ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها

وهذه الحال تجعل الاسير لا يذوق في الكون لذة نعيم غير الملذات البهيمية . بناء عليه يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وان كانت تعيسة . وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها . اين هو من الحياة الادبية اين هو من الحياة الاجتماعية . اما الاحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة ولا يعرف ذلك الا من كان منهم او كشف الله عن بصيرته .ومثال ذلك الشيوخ فانهم عندما تمسي حياتهم كلها أسقاماً وآلاماً ويقربون من أبواب القبور يحرصون على حياتهم اكثر من الشباب في مقتبل العمر . في مقتبل الملاذ . في مقتبل الآمال

الاستبداد يسلب الراحة الفكرية فيضني الاجسام فوق ضناها بالشقاء فتمرض العقول ويختل الشعور على درجات متفاوتة في الناس . والعوام الذين هم قليلو المادة في الاصل قد يصل مرضهم العقلي الى درجه قريبة من عدم التميز بين الخير والشرّ في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية . ويصل تسفل ادراكهم الى ان مجرد آثار الابهة والعظمة التي يرونها على المستبد واعوانه تبهر ابصارهم . ومجرد سماع ألفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم فيرون ويفكرون ان الدواء في الداء : فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين ايدي الذئاب حيث هي تجري على قدميها جاهدة الى مقرّ حتفها

ولهذا كان الاستبداد يستولي على تلك العقول الضعيفة للعامة فضلاً عن الاجسام فيفسدها كما يريد ويتغلب على تلك الاذهان الضئيلة فيشوش فيها الحقائق بل البديهيات كما يهوى فيكون مثلهم في انقيادهم الاعمى للاستبداد ومقاومتهم للرشد والارشاد مثل تلك الهوام التي تترامى على النار وكم هي تغالب من يريد حجزها عن الهلاك . ولا غرابة في تأثير ضعف

الاجسام في اضعاف العقول فان في المرضى وخفـة عقولهم وذوي العاهات ونقص ادراكهم شاهداً بيناً : كما يظهر الحال أيضاً بأقل تدقيق نظر في فرق الصحـة وغزارة الدم وقوة الاجسام وجمال الهيئات بين جموع الاحرار وجموع الاسراء

ربما يستريب المطـالع اللبيب الذي لم يتعب فكره في درس طبيعة الاستبداد من ان الاسـتبداد المشؤوم كيف يقوى على قلب الحقائق . فأقول نعم الاستبداد يقلب الحقائق في الاذهان . حتى انه قد مكن بعض القياصرة والملوك الاولين من التلاعب بالاديان تأييداً لاستبدادهم .وقد وضع الناس الحكومات لأجل خدمتهم والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة كانها خلقت لاجلهم فقبلوا وقنعوا. كما ان الاستبداد استخدم قوتهم المجتمعة وهي هي قوة الحكومة على مصالحهم لا لمصالحهم فارتضوا ورضخوا . وقد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم اليه من اعتقاد ان طالب الحق فاجر وتارك حقه مطيع والمشتكي المتظلم مفسد والنبيه المدقق ملحد والخامل المسكين هو الصالح الامين . وقد اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولاً والغيرة عداوة والشهامة

عتواً والحمية جنوناً والانسانية حماقة والرحمة مرضاً : كما جاروه على اعتبار ان النفاق سياسة والتحيل كياسة والدناءة لطف والنذالة دمائة

ولا غرابة في تحكم الاستبداد على الحقائق في افكار البسطاء انما الغريب اغفاله كثيراً من العقلاء ومنهم جمهور المؤرخين الذين يسمون الفاتحين الغالبين بالرجال العظام وينظرون اليهم نظر الاجلال والاحترام لمجرد انهم كانوا اكثروا في قتل الانسان وأسرفوا في تخريب العمران ومن هذا القبيل في الغرابة اعلاء المؤرخين قدر من جاروا المستبدين وحازوا القبول والوجاهة عند الظالمين . وكذلك افتخار الاخلاف بأسلافهم المرحومين الذين كانوا من هؤلاء الاعوان والمقربين

وقد يدخل على الناس ان للاستبداد حسنات مفقودة في الادارة الحرة ويسلمون له بها فيقولون الاستبداد يلين الطباع ويلطفها والحق ان ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة .ويقولون الاستبداد يعلم الطاعة والانقياد والحق ان هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن ارادة واختيار. او يقولون هو يربي النفوس على احترام الكبير وتوقيره والحق

انه مع الكراهة والبغض لا عن ميل وحب . ويقولون الاستبداد يقلل الفسق والفجور والحق فيه انه عن فقر وعجز لا عن عفة أو دين . ويقولون هو يقلل الجرائم والحق انه يخفيها فيقل تعديدها لا عددها

*
* *

تفعل العدالة في اخلاق البشر ما تفعله العناية في انماء الشجر فالاقوام كالآجام ان تركت مهملة تزاحمت أشجارها وسقم اكثرها وتغلب قويها على ضعيفها فأهلكه وهذا مثل القبائل المتوحشة . وان صادفت بستانياً يهمه بقاؤها وزهوها فدبرها حسبما تطلبه طباعها : قويت وأينعت وحسنت ثمارها وهذا مثل الحكومة العادلة واذا بليت بحطاب لا يعنيه الا عاجل الاكتساب افسدها وخربها وهذا مثل الحكومة المستبدة. ومتى كان البستاني او الحطاب غريباً لم يخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار : انما همه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الاصول فهناك الطامة وهناك البوار . فبناء على هذا المثال يكون مقام الاستبداد بازاء الاخلاق مقام ذلك الحطاب الذي لا يرجى منه غير الافساد

لا تكون الاخلاق اخلاقاً ما لم تكن مطردة على قانون وهذا ما يسمى عند الناس بالناموس. ومن اين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان يقاد حيث يراد ويعيش كالريش يهب حيث يهب الريح لا نظام ولا ارادة . وما هي الارادة هي أم ناموس الاخلاق . هي ما قيل فيها تعظيماً لشأنها . لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الارادة . هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان على النبات في تعريفه بانه متحرك بالارادة. فأسير الاستبداد الفاقد الارادة هو مسلوب حق الحيوانية فضلاً عن الانسانية لانه يعمل بأمر غيره لا بارادته . ولهذا قال الفقهاء لا نية للرقيق في كثير من أحواله انما هو تابع لنية مولاه .

أسير الاستبداد لا نظام في حياته قد يصبح غنياً فيضحى شجاعاً كريماً ويمسي فقيراً فيبيت جباناً خسيساً وهكذا كل شؤونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها فهو يتبعها بلا وجهة . فالاسير لا يبغي على الاسير فينزجر أو لا يزجر ويبغي عليه فينصر أو لا ينصر . ويجوع يوماً فيضوي . ويخصب يوماً فيتخم . يريد أشياء فيمنع ويأبى شيئاً فيرغم . ومن كانت هذه

حاله كيف يكون له خلاق وان وجد ابتداءً فكيف لا يفسد

أقل ما يؤثر الاستبداد في اخلاق الناس انه يرغم الاخيار منهم على ألفة الرياء والنفاق ولبئس السيئتان ويعين الاشرار على اجراء غي نفوسهم آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة لان أكثر اعمالهم تبقى مستورة يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة وعقبى ذكر الفاجر بما فيه

أقوى ضابط للاخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ وهو في عهد الاستبداد غير مقدور عليه لغير ذوي المنعة مع الغيرة وقليل ما هم وقليلاً ما يفعلون وقليلاً ما يفيد نهيهم لانه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضراً ولا نفعاً بل ولا يملكون من انفسهم شيئاً : وينحصر موضوع نهيهم وانتقادهم في الرذائل النفسية الشخصية فقط مما لا يخفى على أحد . اما المتصدرون في عهد الاستبداد للوعظ والارشاد فيكونون مطلقاً ولا اقول غالباً من المتملقين المرائين . وما ابعد هؤلاء عن التأثير لان النصح الذي لا اخلاص فيه هو بذر ميت . اما النهي عن المنكرات في الادارة الحرة فيمكن كل غيور ان يقوم به بأمان واخلاص ويوجهه

الى الضعفاء والاقوياء سواء ويفوّق سهام قوارصه على ذوي الشوكة والزعماء ويخوض في مواضيع تخفيف الظلم وتسديد النظام وهذا هو النصح الذي يعدي ويجدي

ولما كان ضبط اخلاق الطبقات العليا من الناس من أهمّ الامور اطلقت الامم الحرّة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط . ورأت ان تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد لانه لا ضامن للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعية أي الحرية . وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بوضعه قاعدة (ولا يضار كاتب ولا شهيد)

وهذه الامم الموفقة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية . وذلك منطبق تماماً على ما أمر به القرآن الكريم في آية (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وفي كمالة هـذه الآية وهي (وأولئك هم المفلحون) من التبجيل ما يحمل نفوس الابرار على تحمل

مضض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها المقوتة طبعاً عند المستبد واعوانه

***

الخصال تنقسم اولاً الى حسنة طبيعية كالصدق والامانة والهمة والمدافعة والرحمة . وقبيحة طبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة . وهـذا القسم تضافرت عليه كل الطبائع والشرائع .. وثانياً الى خصال كمالية جاءت بها الشرائع الالهامية كتحسين الايثار والعفو وتقبيح الزنا والطمع وهذا القسم ربما يوجد فيه ما لا تدرك كل العقول حكمته أو حكمة تعميمه انمـا يمتثله المنتسب للدين احتراماً او خوفاً . والقسم الثالث الخصال الاعتيادية وهي ما يكتسبه الانسان بالوراثة او بالتربية او بالالفة فيستحسن او يستقبح على حسب امياله

ثم ان التدقيق يفيد ان الاقسام الثلاثة تشتبك وتشترك ويؤثر بعضها في بعض ويكون مجموعها تحت تأثير الالفة بحيث كل خصلة منها ترسخ اوتتزلزل حسبما يصادفها من استمرار الالفة او انقطاعها . فالقاتل مثـلاً لا يستنكر شنيعته في المرة الثانية كما استقبحها من نفسه في الاولى . وهكذا يخف الجرم

في وهمه حتى يصل الى درجة التلذذ بالقتل كأنه حق طبيعي له كما هي حالة الجبارين وغالب السياسيين فانهم يستبيحون اهراق الدماء لغاياتهم السياسية . ولهـذا يصح وصف هـذا الصنف بالجلادين ولا فرق في القتل بالسيف او القلم بقطع الاوداج او بايراث الشقاء

وكذلك يكون اسير الاستبداد لا سيما اذا كان عريقاً فيه فانه يرث شرّ الخصال ويتربى على اشرهـا ويصحبه الشر مدى العمر فمن اين تأتيه الخصال الحسان الا تكفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتيادية الفته الرياء اضطراراً حتى يصير ملكة فيه فيفقد الثقة من نفسه فلا يقدر ان يحكم عليها بخلق مستقر فيه فلا يمكنه مثلاً ان يجزم بامانته او يضمن ثباته فيعيش سيء الظن في حق ذاته متردداً في اعماله لواماً نفسه على اهماله شؤونه شاعراً بنقصه لكن لا يشعر من اين اتاه فيتهم الخالق والخالق جلّ شأنه لم ينقصه شيئاً . ويتهم تارةً دينه وتارةً تربيته وتارةً زمانه وتارة قومه. والحقيقة بعيدة عن كل ذلك وما الحقيقة غير انه خلق حرًّا فأسر

اجمع الاخلاقيون على ان المتلبس بشائبة من القبائح

الخلقية الاصلية لا يمكنه ان يقطع بسلامة غيره منها — وهذا معنى (اذا ساءت فعال المرء ساءت ظنونه) فالمرائي مثلاً ليس من شأنه ان يظن البراءة في غيره من شائبة الرياء كلياً. الاّ اذا بعد تشابه النشأة بينهما بعداً كبيراً. كأن يكون بينهما مغايرة في الجنس والدين او تفاوت مهم في المنزلة كصعلوك وامير كبير. ومثال ذلك الفلاح وامثاله في الشرق يأمن الافرنجي في معاملته ويثق بوزنه وحسابه ولا يأمن ويثق بابن جلدته، وكذلك الافرنجي اذا عهد من نفسه الخيانة قد يأمن الشرقي ولا يأمن مطلقاً ابن جنسه. وهذا الحكم صادق على عكس القضية ايضاً اي ان الامين يظن الناس امناء خصوصاً اشباهه في النشأة وهذا معنى (الكريم يخدع) وكم يذهل الامين في نفسه عن اتباع حكمة الحزم في اساءة الظن في مواقعه اللازمة

اذا علمنا ان من طبيعة الاستبداد ألفة الناس بعد الاخلاق الرديئة وان منها ما يضعف الثقة بالنفس ولذلك يقل فيهم اهل العمل واهل العزائم كما ويفقدهم ثقتهم بعضهم ببعض. فيعلم من ذلك ان الاسراء محرومون طبعاً من ثمرة الاشتراك في اعمال الحياة يعيشون مساكين بائسين متواكلين متخاذلين

متقاعسين متفاشلين والعاقل الحكيم لا يلومهم بل يشفق عليهم ويلتمس لهم مخرجاً ويتبع أثر احكم الحكماء القائل (رب ارحم قومي فانهم لا يعلمون) اللهم اهدِ قومي فانهم لا يعلمون

وهنا استوقف المطامع واستلفته الى التأمل في ما هي ثمرة الاشتراك التي يحرمها الاسراء فاذكره بأن الاشتراك هو اعظم سرّ الكائنات . به قيام كل شيء ما عدا الله وحده . به قيام الاجرام السماوية . به قيام المواليد . به قيام حياة العالم العضوي . به قيام الاجناس والانواع. به قيام الامم والقبائل . به قيام العائلات واعضاء الاجسام . نعم فيه سرّ الحياة . فيه سر تضاعف القوة بنسبة ناموس التربيع . فيه سر تجديد الاستمرار على الاعمال التي لا تفي بها اعمار الافراد. نعم الاشتراك هو السرّ كل السر في نجاح الامم المتمدنة . به اكملوا ناموس حياتهم . به ضبطوا نظام حكوماتهم . به قاموا بعظائم الامور. به نالوا كلما يغبطهم عليه غيرهم

وربّ قائل يقول ان سر الاشتراك ليس بالامر الخفي وقد طالما كتب فيه الكتاب حتى ملته الاسماع ولم يندفع للقيام به في الشرق غير اليابانيين والبوير فما السبب ؟ . فاجيبه

بأن الكتاب كتبوا واكثروا واحسنوا فيما فصلوا وصوروا . ولكن قاتل الله الاستبداد وشؤمه جعلهم يحصرون اقوالهم في الدعوة الى الاشتراك وما بمعناه من التعاون والاتحاد والتحابب والاتفاق . ومنعهم من التعرض لذكر الاسباب كلياً . او اضطرهم الى الاقتصار على بيان الاسباب الاخيرة فقط . فمن قائل مثلاً الشرق مريض وسببه الجهل . ومن قائل الجهل بلاء وسببه قلة المدارس . ومن قائل قلة المدارس عار وسببه عدم التعاون على انشائها من قبل الافراد او من قبل ذوي الشأن .

وهذا اعمق ما يخطه قلم الكاتب الشرقي كأنه وصل الى السبب المانع الطبيعي او الاختياري . والحقيقة ان هناك سلسلة اسباب أخرى تنتهي عند التحول الى القيام بوظيفة الارشاد للزوم التخلص من الاستبداد . والسبيل تكاثر الطلاب

وقائل آخر يقول الشرق مريض وسببه فقد التمسك بالدين ثم يقف . مع انه لو تتبع الاسباب لبلغ الى الحكم بان التهاون في الدين ناشيء من الاستبداد . وان العافية المفقودة هي الحرية السياسية فيرشد اخوانه الى طلبها ومهرها كثرة الطلاب

*
* *

قد اتفق الحكماء الذين اكرمهم الله تعالى بوظيفة الاخذ بيد الامم في بحثهم عن المهلكات والمنجيات على ان فساد الاخلاق يخرج الامم عن ان تكون قابلة للخطاب وان معاناة اصلاح الاخلاق من اصعب الامور واحوجها الى الحكمة البالغة والعزم القوي . وذكروا ان فساد الاخلاق يفشوا من المستبد واعوانه من الوزراء الى الفراشين ومن القواد الى الانفار ومن هؤلاء يدخل فساد الاخلاق بالعدوى الى كل البيوت. لا سيما بيوت الطبقات العليا التي تتمثل بها السفلى . وهكذا يتعمم الفساد وتمسي الامة يبكيها المحب ويشمت بها العدو . وتبيت وداؤها عياء لا يرجى له شفاء

وقد سلك الانبياء عليهم السلام في انقاذ الامم من شقائها مسلك الابتداء اولاً بفك العقول من تعظيم غير الله والاذعان لسواه . وذلك بتقوية حسن الايمان المفطور عليه وجدان كل انسان. ثم جهدوا في تنوير العقول بمباديء الحكمة وتعريف الانسان كيف يملك ارادته اي حريته في افكاره : واختياره في اعماله وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا منبع الفساد. ثم بعد اطلاق زمام العقول صاروا ينظرون الى الانسان

بانه مكلف بقانون الانسانية ومطالب بحسن الاخلاق فيعلمونه ذلك باساليب التعليم المقنع وبث التربية التهذيبية

والحكماء السياسيون الاقدمون اتبعوا الانبياء عليهم السلام في سلوك هذه الطريق وهذا الترتيب . أي بالابتداء من نقطة دينية توصلاً لتحرير الضمائر ثم باتباع طريق التربية والتهذيب بدون فتور ولا انقطاع

اما المتأخرون الغربيون فمنهم فئة سلكوا طريقة الخروج بامهم من حظيرة الدين وآدابه النفيسة الى فضاء الاطلاق وتربية الطبيعة . زاعمين ان الفطرة في الانسان كافية لضبط النظام . وقد غرّهم بهذه الطريق زهوة مدخلها واعتقادهم ان الدين والاستبداد كلمتان بمعنى واحد

وقد ساعدهم على سلوك هذا المسلك انهم وجدوا اممهم قد فشا فيها نور العلم . ذلك العلم الذي كان منحصراً في خدمة الدين عند المصريين والاشوريين. ومحتكراً في ابناء الاشراف عند الغرناطيين والرومان ومخصصاً في اعداد من الشبان المنتخبين عند الهنديين واليونان حتى جاء العرب بعد الاسلام واطلقوا حرية العلم واباحوا تناوله لكل متعلم فانتقل الى اوربا

حراً . فتنورت به عقول الامم على درجات وفي نسبتها ترقت تلك الامم في النعيم وانتشرت وتخالطت وصار المتأخر منها يغبط المتقدم ويتنغص من حالته ويتطلب اللحاق ويبحث عن وسائله . فنشأ من ذلك حركة معرفة الخير والغيرة على نواله. حركة معرفة الشر والانفة من الصبر عليه . حركة تستدعي السير الى الامام رغم كل معارض . فأغتنم زعماء الحرية قوة هذه الحركة واضافوا اليها قوات ادبية شتى كاستبداد ثقالة وقار الدين بزهوة عروس الحرية حتى انهم لم يبالوا بتمثيل الحرية بحسناء خليعة تختلب النفوس . وكاستبدال رابطة الاشتراك في الطاعة للمستبدين برابطة الاشتراك بحب الوطن. وهكذا جعلوا قوة حركة الافكار تياراً سلطوه على رؤوس الرؤوس من اهل السياسة والدين . على ان هؤلاء الزعماء اخذوا من مهجورات دينهم قاعدة (الغاية تبرّر الواسطة) وقاعدة(تثقيل الذمة مبيح) ودفعوا الناس بهما الى ارتكاب الجرائم الفظيعة التي لا يستبيحها الحكيم الشرقي لما بين ابناء الغرب وابناء الشرق من التباين في الغرائز والاخلاق

ثم الغربي مادي الحياة قوي النفس شديد المعاملة حريص

على الاستئثار حريص على الانتقام كانه لم يبق عنده شيء من المباديء العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق. فالجرماني مثلاً جاف الطبع يرى ان العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت . ويرى كل الفضيلة في القوة وكل القوة في المال فهو يحب العلم ولكن لاجل المال ويحب المجد ولكن لاجل المال . واللاتيني منه مطبوع على العجب والطيش . يرى العقل في الاطلاق والحياة في خلع الحياء . والشرف في الزينة واللباس . والعز في التغلب على الناس . اما اهل الشرق فهم ادبيون ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب والاصغاء للوجدان والرحمة ولو في غير موقعها. واللطف ولو مع الخصم والفتوة والقناعة والتهاون في المستقبل. ولهذا ليس من شأن الشرقي ان يجوز ما يستبيحه الغربي وان جوزه لا يحسن استثماره ولا يقوى على حفظه فالشرقي مثلاً يهتم في شأن ظالمه المستبد فاذا زال لا يفكر فيمن يخلفه

والحاصل ان الحكماء المتأخرين الغربيين ساعدتهم ظروف الزمان والمكان لاختصار الطريق فسلكوه واستباحوا ما استباحوا حتى انهم استباحوا في التمهيد بتشجيع المستبدين على

تشديد وطأة الظلم والاعتساف بقصد تعميم الحقد عليهم. وبمثل هذه التدابير القاسية نالوا المراد أو بعضه من تحرير الافكار وتهذيب الاخلاق وجعل الانسان انساناً

وقد سبق هؤلاء المتأخرين فئة اتبعت اثر النبيين ولم تحفل بطول الطريق وتعبه فنجحت ورسخت واعني بتلك الفئة اولئك الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد ولا تمسكوا بمعاداة كل دين كمؤسسي جمهورية الفرنسيس بل رتقوا فتوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا حتى جددوه وجعلوه صالحاً لتجديد خليق اخلاقهم

وما احوج الشرقيين اجمعين من بوذيين ومسلمين ومسيحيين واسرائيليين وغيرهم الى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء الغفل الاغبياء . والرؤساء القساة الجهلاء يجددون النظر في الدين فيعيدون النواقص المعطلة ويهذبونه من الزائد الباطلة مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده فيحتاج الى مجددين يرجعون به الى اصله المبين البريء من حيث تمليك الارادة والسعادة في الحياة من كل ما يشين . المخفف شقاء الاستبداد والاستعباد المبصر بطرائق التعليم والتعلم الصحيحين . المهيء

قيام التربية الحسنة واستقرار الاخلاق المنتظمة مما به يصير الانسان انساناً وبه لا بالكفر يعيش الناس اخواناً

والشرقيون ما داموا على حاضر حالهم بعيدين عن الجد والعزم مرتاحين للهو والهزل تسكيناً لآلام اساوة النفس واخلاداً الى الخمول والتسفل طلباً لراحة الفكر المضغوط عليه من كل جانب يتألمون من تذكيرهم بالحقائق ومطالبتهم بالوظائف ينتظرون زوال العناد بالتواكل او التمني والدعاء او يتربصون صدفة مثل التي نالها بعض الامم فليتوقعوا اذاً ان يفقدوا الدين كلياً فيصبحوا وما الصبح عليهم ببعيد دهريين لا يدرون أي الحياتين اشق او فلينتظروا ما حاق بالاشوريين والفينيقيين وغيرهم من الامم المنقرضة والله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون

الاستبداد والتربية

خلق الله في الانسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد فابواه يصلحانه وابواه يفسدانه • اي ان التربية تربوا باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً ان خيراً فخير وان شراً فشر •

وقد سبق ان الاستبداد المشؤم يؤثر على الاجسام فيورثها الاسقام ويسطو على النفوس فيفسد الاخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعالم. بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته

استعداد الانسان لا حدّ لغايته فقد يبلغ في الكمال الى ما فوق مرتبة الملائكة لانه هو المخلوق الذي حمل الامانة وقد أبتها كافة العوالم. ويصح ان تكون هذه الامانة هي تخير تربية النفس على الخير او الشر . وقد يتلبس بالرذائل حتى يكون احط من الشياطين بل احط من المستبدين لان الشياطين لا ينازعون الله في عظمته والمستبدون ينازعونه فيها ولكن لحاجة في النفس . والمتناهون في الرذالة قد يقبحون عبثاً لا لغرض حتى قد يتعمدون الاساءة لانفسهم

الانسان في نشأته كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه ولكنها اهواء التربية تميل به الى يمين الخير او شمال الشرّ فاذا شب يبس وبقي على امياله ما دام حياً بل تبقى روحه الى أبد الابدين في جحيم الندم على التفريط او نعيم السرور بايفاء

حق وظيفة الحياة . وما اشبه الانسان بعد الموت بالفرح الفخور اذا نام ولذت له الاحلام وبالمجرم الجاني اذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلها ملام وايلام

التربية ملكة تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس فاهم أصولها وجود المربين واهم فروعها وجود الدين . وهذه الملكة بعد حصولها ان كانت شراً تضافرت مع النفس والشيطان الخناس فرسخت وان كانت خيراً تبقى مقلقلة كالسفينة في بحر الاهواء لا يرسو بها الا فرعها الديني او الوازع السياسي مع المثابرة على العمل بمقتضاها . والاستبداد ريح صرصر فيه اعصار يجعل الانسان كل ساعة في شأن . وهو مفسد للدين في اهم قسميه أي الاخلاق . واما العبادات منه فلا يمسها لانها تلائمه في الاكثر . ولهذا تبقى الاديان في الامم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات فلا تفيد في تطهير النفوس شيئاً فلا تنهي عن فحشاء ولا منكر وذلك لفقد الاخلاص فيها تبعاً لفقدها في النفوس التي ألفت ان تتلجأ وتتلوى بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق ولهذا لا يستغرب في الاسير الاليف تلك

الحال ان يستعملها ايضاً مع ربه ومع ابيه وامه ومع قومه وجنسه حتى ومع نفسه.

التربية تربية الجسم وحده الى سنتين وهي وظيفة الام وحدها ثم تضاف اليها تربية النفس الى السابعة وهي وظيفة الابوين والعائلة معاً . ثم تضاف اليها تربية العقل الى البلوغ وهي وظيفة المعلمين والمدارس.ثم تأتي تربية القدوة بالاقربين والخلطاء الى الزواج وهي وظيفة الصدفة ثم تأتي تربية المقارنة وهي وظيفة الزوجين الى الموت أو الفراق.

ولا بد ان تصحب التربية من بعد البلوغ تربية الظروف المحيطة وتربية الهيئة الاجتماعية وتربية القانون اوالسير السياسي وتربية الانسان نفسه.

*
* *

الحكومات المنتظمة هي تتولى ملاحظة تربية الامة من حين تكون في ظهور الآباء وذلك بان تسن قوانين النكاح ثم تعتني بوجود القابلات والملقحين والاطباء . ثم تفتح بيوت الايتام اللقطاء ثم المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبري الى اعلى المراتب . ثم تسهل الاجتماعات وتمهد المراسح

وتحمي المنتديات وتجمع المكتبات والآثار وتقيم النصب المذكرات وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق وتسهر على حفظ العادات القومية وانماء الاحساسات الملية وتقوي الآمال وتيسر الاعمال وتؤمن العاجزين عن الكسب من الموت جوعاً الى ان تقوم باحتفالات جنائز ذوي الفضل على الامة . وهكذا الامة تحرص على ان يعيش ابنها راضياً بنصيبه من حياته لا يفتكر قط كيف تكون بعده حالة صبية ضعاف يتركهم وراءه بل يموت مطمئناً راضياً مرضياً آخر دعائه فلتحيَ الامة فلتحيَ الامة

أما المعيشة البشرية فى الادارات المستبدة فهي غنية عن التربية لانها محض نماء يشبه نماء الاشجار الطبيعية في الغابات والاحراش يسطو عليها الحرُق والغرَق وتحطمها العواصف والايدي القواصف ويتصرّف في فسائلها وفروعها الفأس الاعمى فتعيش ما شاءت رحمة الحطابين ان تعيش. والخيار للصدفة تعوج أو تستقيم تثمر أو تعقم

يعيش الانسان في ظل العدالة والحرية نشيطاً على العمل بياض نهاره وعلى الفكر سواد ليله ان طعم تلذذ وان تلهى

تروح وتريض : لانه هكذا رأى أبويه واقرباءه وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهـم : يراهم رجالاً ونساء اغنياء وفقراء ملوكاً وصعاليك كلهم دائبين على الاعمال يفتخر منهم كاسب الدينار بكده وجده على مالك المليار ارثاً عن ابيه وجده . نعم يعيش العامل الناعم البال يسره النجاح ولا تقبضه الخيبة انما ينتقل من عمل الى غيره ومن فكر الى آخر : فيكون سعيداً باماله ان لم يسارعه السعد في أعماله وكيفما كان يبلغ العذر عند نفسه وذويه بمجرد ايفائه وظيفة الحياة أي العمـل : ويكون فرحاً فخوراً نجح أو لم ينجح لانه بريء من عار العجز والبطالة

أما اسير الاستبداد فيعيش خاملاً خامداً ضائع القصد حائراً لا يدري كيف يميت ساعاته واوقاته ويدرج ايامه واعوامه كانه حريص على بلوغ اجله ليستتر تحت التراب . ويخطيء من يظن ان اكثر الاسراء لا سيما منهم الفقراء لا يشعرون بآلام الاسر مستدلاً بانهم لو كانوا يشعرون لبادروا الى ازالته: والحقيقة في ذلك انهم يشعرون باكثر الآلام ولـكنهم لا يدركون ما هو سببها : فيرى احدهم نفسه منقبضاً عن العمل لانه غير امين على اختصاصه بالثمرة وربما ظن السابب حقاً

طبيعياً للاقوياء فيتمنى ان لو كان منهم . ثم يعمل تارة ولكن بدون نشاط ولا اتقان فيفشل ضرورة ولا يدري أيضاً ما السبب فيغضب على ما يسميه سعداً أو حظاً أو طالعاً أو قدراً

الاسير المعذب المنتسب الى دين يسلي نفسه بالسعادة الاخروية فيعدها بجنان ذات افنان ونعيم مقيم اعده له الرحمن. ويبعد عن فكره ان الدنيا عنوان الآخرة وانه ربما كان خاسر الصفقتين . ولبسطاء الاسلام مسليات اظنها خاصة بهم يعطفون مصائبهم عليها وهي نحو قولهم . الدنيا سجن المؤمن . المؤمن مصاب . اذا أحب الله عبداً ابتلاه . هذا شأن آخر الزمان . حسب المرء لقيمات يقمن صلبه . ويتناسون حديث (ان الله يكره العبد البطال) والحديث المفيد معنى (اذا قامت الساعة وفي يد احدكم غرسة فليغرسها) ويتغافلون عن النص القاطع المؤجل قيام الساعة الى ما بعد استكمال الارض زخرفها وزينتها . وأين ذلك بعد

وكل هذه المسليات المثبطات تهون عند ذلك السم القاتل الذي يحوّل الاذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء فيرفع المسؤلية عن المستبدين ويلقيها على عاتق القضاء والقدر.

بل على عاتق الاسراء المساكين انفسهم.واعني بهذا السم سوء فهم العوام وبله الخواص لما ورد في التوراة من نحو (يد الله على قلب الملك) ولما ورد في الانجيل من نحو (اخضعوا للسلطان ولا سلطة الا من الله) و (الحاكم لا يتقلد السيف جزافاً انه مقام للانتقام من اهل الشرّ) ولما ورد في الرسائل من نحو (فلتخضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله) . وقد صاغ وعاظ المسلمين ومحدثوهم من ذلك قولهم (السلطان ظل الله في الارض) و (الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه) و (الملوك ملهمون) . هذا وكل ماورد في هذا المعنى ان صح فهو مقيد بالعدالة أو محتمل للتأويل بما يعقل وبما ينطبق على حكم الآية الكريمة التي فيها فصل الخطاب وهي (ألا لعنة الله على الظالمين) وآية (ولا عدوان الا على الظالمين)

* * *

التربية علم وعمل.وليس من شأن الامم المملوكة شؤونها أن يوجد فيها من يعلم التربية ولا من يعلمها حتى لا يرى الباحث عندهم علماً في التربية مدفوناً في الكتب فضلاً عن الاذهان .أما العمل فلا يتصور بلا سبق عزم وهو بلا سبق

يقين وهو بلا سبق علم . وعندي ان هذا التسلسل هو المراد في حديث « انما الاعمال بالنيات » ثم ما أبعد الناس المغصوبة ارادتهم المغلولة أيديهم عن توجيه الفكر الى مقصد مفيد او توجيه الجسم الى عمل نافع

نعم ما أبعد هؤلاء عن التربية وهي قصر النظر على المحاسن والعبر وقصر السمع على الفوائد والحكم وتعويد اللسان على قول الخير وتعويد اليد على الاتقان وتكبير النفس على السفاسف وتكبير الوجدان عن نصرة الباطل ورعاية الترتيب في الشؤون ورعاية الاقتصاد في الوقت والمال . والاندفاع بالكلية لحفظ الشرف لحفظ الحقوق ولحماية الدين لحماية الناموس ولحب الوطن لحب العائلة ولاعانة العلم لاعانة الضعيف ولاحتقار الظالمين لاحتقار الحياة . الى غير ذلك مما ينبت في رياض التربيتين العائلية والقومية

الاستبداد يضطر الناس الى اباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحسّ واماتة النفس الى آخره : وينتج من ذلك انه يربي الناس على هذه الخصال بناءً عليه يرى الآباء ان تعبهم في تربية الابناء التربية الاولى

لا بد ان يذهب يوماً عبثاً تحت ارجل تربية الاستبداد كما ذهبت قبلها تربية آبائهم لهم سدى ثم ان عبيد السلطة التي لا حدود لها هم غير مالكين انفسهم ولا هم آمنون على انهم يربون اولادهم لهم بل هم يربون انعاماً للمستبدين واعواناً لهم عليهم . وفي الحقيقة ان الاولاد في عهد الاستبداد سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على اوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق . فالتوالد من حيث هو زمن الاستبداد حمق والاعتناء بالتربية حمق مضاعف . وقد قال شاعر شاعر

ان دام هذا ولم تحدث له غيرٌ
لم يبكَ ميت ولم يفرح بمولودِ

وغالب الاسراء لا يدفعهم للتوالد قصد الاخصاب انما يدفعهم اليه الجهل المظلم وانهم محرومون من كل الملذات الحقيقية التي يحرمها أيضاً الاغنياء الجهلاء عامة كلذة العلم وتعليمه ولذة المجد والحماية ولذة الاثراء والبذل ولذة احراز مقام في القلوب ولذة نفوذ الرأي الصائب الى غير هذه الملذات الروحية . وأما ملذاتهم فهي مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات ان تيسرت والا فزابل للنباتات ومنحصرة في

استفراغهم الشهوة كأن اجسامهم خلقت دملاً على أديم الارض وظيفتها توليد الصديد ودفعه . وهذا الشره البهيمي الناشئ عن فقد الملذات العالية المذكورة هو ما يعمي الاسراء ويرميهم بالزواج والتوالد مع ان العرض كسائر الحقوق غير مصون زمن الاستبداد بل هو معرض لهتك الفساق من المستبدين والاشرار من أعوانهم خصوصاً في الحواضر الصغيرة والقرى المستضعف أهلها . ولهذا الضعف في لصقة الأولاد بازواج أمهاتهم تأثير مهم في اضعاف الغيرة على تحمل مشاق التربية تلك الغيرة التي لأجلها شرع الله النكاح وحرّم السفاح

للسعة والفقر أيضاً دخل كبير في تسهيل التربية وأين الاسراء من السعة كما ان لانتظام المعيشة ولو مع الفقر علاقة قوية في التربية ومعيشة الاسراء اغنياءً كانوا أو معدمين كلها خلل في خلل وضيق في ضيق : فما أبعد الاسراء اذن عن التربية . ثم ليت شعري لماذا يتحمل الآباء الاسراء مشاق التربية وهم ان نوروا أولادهم جنوا عليهم بتقوية احساسهم فيزيدونهم شقاء ويزوّدونهم بلاء ولهذا لا غرو ان يختار

الاسراء الذين فيهم بقيـة من الادراك ترك أولادهم هملاً تجرفهم البلاهة الى حيث تشاء

واذا افتكرنا كيف ينشأ الاسير في البيت الفقير وكيف يتربى : نجد انه يلقح به وفي الغـالب أبواه متنا كدان متشا كسان : ثم اذا تحرك جنيناً حرك شراسة أمه فشتمته أو زاد آلام حياتها فضربته : فاذا ما نما ضيقت عليه مقره لأ لفتها الانحناء خمولاً أو التصرّر صغاراً أو التقلص لضيق الفراش : ومتى ولدته ضغطت عليه بالقماط اقتصاداً او جهلاً : فاذا بكى تألماً سدت فمه بثديها او قطعت نفسه بدوّار السرير او سقته مخدراً عجزاً عن نفقة الطبيب : فاذا ما فطم يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته ويفسد مزاجه : فان كان طويل العمر وترعرع يمنع من رياضة اللعب لضيق البيت: فان سأل واستفهم ليتعلم يزجر ويلكم لضيق خلق أبويه : فاذا قوية رجلاه يدفع به الى خارج الباب الى مدرسة الالفة على القذارة وتعلم صيغ الشتائم والسباب : فان عاش ونشأ وضع في مكتب أو عند ذي صنعة ويكون أكبر القصد ربطه عن السراح والمراح : فاذا بلغ الشباب ربطه أولياؤه على وتد الزواج كي لا يبرح يقاسمهم

شقاء الحياة ويجني على غيره كما جنى عليه أبواه : ثم هو يتولى التضييق على نفسه حتى بتثقيل الثياب المانعة حرية حركة جسمه : ويتولى المستبدون الضغط والتضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله : وهكذا يعيش الاسير من حين يكون نسمة في ضيق وضغط يهرول ما بين وداع سقم واستقبال سقم الى ان يستقبله الموت مضيعاً دنياه مع آخرته فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه

ولا يظنن المطالع ان حالة اغنياء الاسراء هي خير من هذا بكثير لانهم اذا نقصتهم بعض المنغصات تزيد فيهم مشاق التظاهر بالراحة والرفاه والعزة والمنعة تظاهراً ان صح قليله فكثيره الكاذب حمل ثقيل على عواتقهم

حياة الاسير تشبه حياة النائم المزعوج بالاحلام فهي حياة لا روح فيها . حياة وظيفتها تمثيل مندرسات الجسم لا علاقة لها بحفظ المزايا البشرية . ولولا ان ليس في الكون شيء غير تابع لنظام حتى فلتات الطبيعة والصدف التي هي مسببات لاسباب نادرة : لحكمنا بأن معيشة الاسراء هي محض فوضى لاشبه فوضى . على ان التدقيق العميق يفيدنا

بأن للاسراء قوانين غريبة في مقاومة الفناء لا يمكن ضبطها انما الاسير يرضعها مع لبن امه ويتربى عليها ويبدع فيها بسائق الحاجة ويكون الحاذق فيها علماً الماهر في تطبيقها عملاً هو الموفق في ميدان تنازع البقاء والعاجز عنها يتعجله الزوال لاسيما اذا جاءه العجز من جهة زلاقة اللسان او كبر النفس او قوة الاحساس او جسارة الجنان فانه الهالك لا محالة

قوانين حياة الاسير هي مقتضيات الشؤون المحيطة به التي تضطره لان يطبق احساساته عليها ويدبر نفسه على موجبها : وذلك نحو مقابلة التجبر عليه بالتذلل والتصاغر : وتعديل الشدة عليه بالتلاين والمطاوعة واعطاء المطلوب منه بعد قليل من التمتع: واستعمال سياسة الشدّ والارخاء والكسب مع شكاية الحاجة : وحفظ المال بالاخفاء: والتعامي عن زلاّت المستبد : والتصامم عن سماع ما يحكى عليه : والتظاهر بفقد الحس : وستر العلم بالتجاهل والعقل بالتباله : وعزو كل خير الى المستبد وان كان نحو المطر فالى يمنه : واسناد الشرور الى الاستحقاق : والمطالبة بالحقوق بصفة استعطاف : الى غير ذلك من قانون الاسارى الذي رؤوس مسائله تمل القاري

فضلاً عن تفصيلاتها . هذا واخوف ما يخافه الاسير هو ان يظهر عليه أثر نعمة الله في المال او الجسم فتصيبه عين الجواسيس « وهذا اصل عقيدة اصابة العين » . او أن يظهر له شأن في علم او جاه او نعمة مهمة فيسعى به حاسدوه الى المستبد «وهذا أصل شر الحسد الذي يتعوذ منه » . وقد يتحيل الاسير على حفظ ماله الذي لا يمكنه اخفاءه كالزوجة الجميلة أو الدابة الثمينة أو الدار الكبيرة فيحميها باسناد الشؤم « وهذا اصل التشاؤم بالاقدام والنواصي والاعتاب »

***

وقد اتضح مما تقدم ان التربية الصحيحة غير مقصودة ولا مقدورة في ظلال الاستبداد الا ما قد يكون بالتخويف من شر الظالمين. وهذا النوع يستلزم انخلاع القلوب لا تزكية النفوس . وقد اجمع علماء السياسة والاخلاق والتربية على ان الاقناع خير من الترغيب فضلاً عن الترهيب . وعلى هذه بنوا قولهم ان المدارس تقلل الجنايات لا السجون ووجدوا ان القصاص والمعاقبة قلما يفيدان في زجر النفس كما قال الحكيم العربي

لا ترجع الانفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجرُ

ومن يتأمل جيداً في قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب » ملاحظاً ان معنى القصاص لغة هو التساوي ويدقق النظر في القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية ويتبع مسالك الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام يرى ان الاعتناء في طريق الهداية منصرف فيها الى الاقناع ثم الى الاطماع عاجلاً او آجلاً ثم الى الترهيب الآجل غالباً ومع ترك ابواب تدلي الى النجاة

ثم ان التربية التي هي ضالة الامم وفقدها هو المصيبة العظمى في الشرق هي التربية المرتبة على اعداد العقل للتمييز ثم على حسن التفهيم والاقناع ثم على التمرين والتعويد ثم على حسن القدوة والمثال ثم على المواظبة والتمادي. فاذا كان لا مطمع في التربية العامة على هذه الاصول بمانع طبيعة الاستبداد فلا يكون لعقلاء المبتلين به الا ان يسعوا اولاً وراء ازالة المانع الضاغط على العقول : ثم يعتنوا بالتربية حيث يمكنهم حينئذ أن ينالوها على توالي البطون والله الموفق

الاستبداد والترقي

الحركة سنة عاملة في الخليقة دائبة بين شخوص وهبوط. فالترقي هو الحركة الحيوية أي حركة الشخوص ويقابله الهبوط وهو الحركة الى الموت او الانحلال او الاستحالة او الانقلاب. وهـذه السنة كما هي عاملة في المادة واعراضها عاملة ايضاً في الـكيفيات ومركباتها والقول الشارح لذلك آية «ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي» وحديث «ما تم امر الا وبدا نقصه» وقولهم التاريخ يعيد نفسه. وحكمهم بأن الحياة والموت حقان طبيعيان.

وهذه الحركة لا تقتضي السـير الى النهاية شخوصاً او هبوطاً بل هي اشبه بميزان الحراره كل ساعة في شأن والعبرة في الحكم للوجهة الغالبة. فاذا رأينا في امة آثار حركة الترقي هي الغالبة على افرادها حكمنا لها بالحياة. ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت. وذلك لان الامة هي مجموع افراد يجمعها نسب او وطن او لغة او دين كما ان البناء مجموع انقاض. فاذا ترقي او انحط فرد واحد من امة أثر ذلك في مجموع تلك

الامة : كما أذا وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة أثقلتها واماالتها حقيقة وان لم يدرك ذلك بالمشاعر

الترقي الحيوي الذي يسعى وراءه الانسان بفطرته هو اولاً الترقي في الجسم صحة وتلذذاً ثم الترقي في التركيب بالعائلة والعشيرة . ثم الترقي في القوة بالعلم والمال . ثم الترقي في الملكات بالخصال والمفاخر

وهناك نوع آخر بالترقي يتعلق بالروح وهو ان الانسان يحمل نفساً ملهمة بأن لها وراء حياتها هذه حياة اخرى تترقى اليها على سلم الرحمة والحسنات : فأهل الاديان يؤمنون بالبعث او التناسخ فيرجون مكافأة ويخافون مجازأة : ومن هم من قبيل الطبيعيين يهتمون بالحياة التاريخية بحسن الذكر او قبحه

وهذه الترقيات على انواعها لا يزال الانسان يسعى وراءها ما لم يعترضه مانع غالب يسلب ارادته وهذا المانع اما هو القدر المحتوم المسمى عند البعض بالعجز الطبيعي أو هو الاستبداد المشؤم . على ان القدر قد يصدم سير الترقي لمحة ثم يطلقه فيكرّ راقياً . واما الاستبداد فانه يقلب السير من الترقي

الى الانحطاط : من التقدم الى التأخر : من النماء الى الفناء
ويلازم الامة ملازمة الغريم الشحيح ويفعل فيها دهراً طويلاً
أفعاله التي تقدم وصف بعضها في الابحاث السابقة : افعاله التي
تبلغ بالامة حطة العجماوات فلا يعود يهمها غير حفظ حياتها
الحيوانية فقط بل تكون حياتها هـذه الدنيئة ايضاً مباحة
للاستبداد اباحة ظاهرة أو خفية

وقد يبلغ فعل الاستبداد بالامة ان يحول ميلها الطبيعي
من طلب الترقي الى طلب التسفل بحيث لو دفعت الى الرفعة
لأبت وتألمت كما يتألم الاجهر من النور واذا الزمت بالحرية
تشقى وربما تفنى كالبهائم الاهلية اذا اطلق سراحها : وعندئذ
يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الامة
فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها

وقد توصف حركة الترقي والانحطاط في الشؤون الحيوية
للانسان بانهـا من نوع الحركة الدودية التي تحصل بالاندفاع
والانقباض. وذلك ان الانسان يولد وهو اعجز حراكاً وادراكاً
من كل حيوان : ثم يأخذ في السير تدفعه « الرغائب» النفسية
والعقلية وتقبضه « الموانع » الطبيعية والمزاحمة : وهذا سرّ ان

الانسان يتنابه الخير والشر وهو سرّ ما ورد في القرآن الكريم من ابتلاء الله الناس بالخير وبالشر : وهو معنى ما ورد في الاثر من ان الخير مربوط بذيل الشر والشر مربوط بذيل الخير : وهو المراد من اقوال الحكماء نحو : على قدر النعمة تكون النقمة : على قدر الهمم تأتي العزائم . بين السعادة والشقاء حرب سجال : العاقل من يستفيد من مصيبته والكيس من يستفيد من مصيبته ومصيبة غيره

اذا تقرر هذا فليعلم ايضاً ان سبيل الانسان هو الى الرقي مادام جناحا الاندفاع والانقباض فيه متوازنين كتوازن الايجابية والسلبية في الكهربائية : وسبيله القهقري ان غلبته الطبيعة او المزاحمة . ثم ان الاندفاع ان غلب فيه العقل النفس كانت الوجهة الى الحكمة : وان غلبت النفس العقل كانت الوجهة الى الزيغ . اما الانقباض فالمعتدل منه هو السائق للعمل : والقويّ منه مهلك مسكن للحركة : والاستبداد المشؤوم الذي نبحث فيه هو قابض ضاغط مسكن والمبتلون به هم المساكين

اسراء الاستبداد ولا سيما الفقراء منهم كلهم مساكين

لا حراك فيهم فيعيشون منحطين في الادراك منحطين في الاحساس منحطين في الاخلاق. وما اظلم توجيه اللوم عليهم بغير لسان الارشاد : وقد ابدع من شبه حالتهم بدود تحت صخرة : وما أليق باللائمين ان يكونوا مشفقين فيسعوا في رفع الصخرة ولو حتاً بالاظافر ذرةً بعد ذرة

قد أجمع الحكماء على ان اهم ما يجب عمله على الآخذين بيد الامم : الذين فيهم نسمة مروءة وشرارة حمية : الذين يعرفون ما هي وظيفتهم بازاء الانسانية ان يسعوا في رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها في النموّ فتمزّق غيوم الاوهام التي تمطر المخاوف

* * *

وعلى ذكر اللوم الإرشادي لاح لي ان اصوّر الرقي والانحطاط في النفس وكيف ينبغي للانسان العاقل ان يعاني ايقاظ قومه وكيف يرشدهم الى انهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والسفالة : فيذكرهم ويحرّك قلوبهم ويناجيهم بنحو الخطابات الآتية

« ياقوم ينازعني والله الشعور هل موقفي هـذا في جمع

حي احييه بالسلام ام انا اخاطب اهل القبور فاحييهم بالرحمة .
ياقوم لستم بأحياء عاملين ولا اموات مستريحين بل انتم بين
بين في برزخ يسمى التنبات ويصح تشبيهه بالنوم »

« ياقوم هدا كم الله ما هذا الشقاء المديد والناس في نعيم
مقيم وعز كريم أفلا تنظرون . وما هذا التأخر وقد سبقتكم
الاقوام ألوف مراحل حتى صار ما بعد ورائكم وراء أفلا
تتبعون . وما هـذا الانخفاض والناس في أوج الرفعة
أفلا تغارون »

« ياقوم وقاكم الله من الشرّ أنتم بعيدون عن مفاخر
الابداع وشرف القدوة مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل
فكر وعمل . وبداء الحرص على كل عتيق . فلماذا تقلدون
اجدادكم في الخرافات والامور السافلات ولا تقلدونهم في
محامدهم . أين الدين أين التربية أين الاحساس أين الغيرة أين
الجسارة أين الثبات أين الرابطة أين المنعة أين الشهامة أين
النخوة أين الفضيلة أين المواساة . هل تسمعون ام انتم نائمون »

« ياقوم عافاكم الله الى متى هذا النوم والى متى هـذا
التقلب على فراش البأس ووسادة اليأس . أنتم مفتحة عيونكم

ولكنكم نيام لكم ابصار ولكنكم لا تنظرون . وهكذا لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . لكم سمع وشم وذوق ولمس ولكنكم لا تشعرون بها ما هي اللذائذ حقاً وما هي الآلام . ولكم رؤوس كبيرة ولكنها مشغولة بزعجات الاوهام والاحلام ولكم نفوس ولكن لا تعرفون لها قدراً ومقاماً »

« ياقوم قاتل الله الغباوة فانها تملأ القلوب رعباً من لا شيء وخوفاً من كل شيء وتفعم الرؤوس تشويشاً وسخافة . أليست هي الغباوة جعلتكم كأنكم قد مسكم الشيطان فتخافون من ظلكم وترهبون من قوتكم وتجيشون منكم عليكم جيوشاً ليقتل بعضكم بعضاً . تترامون على الموت خوف الموت وتحسبون طول العمر فكركم في الدماغ ونطقكم في اللسان واحساسكم في الوجدان خوفاً من ان يحبس الظالمون أرجلكم أياماً »

« ياقوم اعيذكم بالله من فساد الرأي وضياع الحزم وفقد الثقة بالنفس وترك الارادة للغير . فهل ترون أثراً للرشد في ان يوكل الانسان عنه وكيلاً ويطلق له التصرف في ماله واهله والتحكم في حياته وشرفه والتأثير على دينه وفكره مع تسليفه

هذا الوكيل العفو عن كل عيث وخيانة واسراف واتلاف أم ترون ان هذا نوع من الجنة به.يظلم الانسان نفسه : بلى . ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون »

« ياقوم شفاكم الله قد ينفع اليوم الانذار واللوم وأما غداً اذا حل القضاء فلا يبقى لكم غير الندب والبكاء فالى متى هذا التخادع والى متى هذا التواني . والى متى هذا التواكل هل طاب لكم هذا الذل وتودون لو تصحبونه في القبور .أم عاهدتم انفسكم أن تصلوا غفلة الحياة بالممات فلا تفيقوا من السبات قبل صباح يوم النشور »

« ياقوم رحمكم الله ما هذا الحرص على حياة تعيسة دنيئة لا تملكونها ساعة . ما هذا الحرص على الراحة الموهومة وحياتكم كلها تعب ونصب : هل لكم في هذا الصبر فخر أو لكم عليه اجر . كلا والله ساء ما تتوهمون ليس لكم الا القهر في الحياة وقبيح الذكر بعد الممات لانكم ما أفدتم ولا استفدتم من الوجود بل أتلفتم ما ورثتم عن السلف وصرتم بئس الواسطة للخلف »

« ياقوم حماكم الله قد جاءكم المستمتعون من كل حدب

ينسلون فان وجودكم ايقاظاً عاملوكم كما يتعامل الجيران ويتجامل الاقران وان وجودكم رقوداً لا تشعرون سلبوا اموالكم وزاحموكم على ارضكم وتحيلوا على تذليلكم وربطكم واتخاذكم كالانعام . وعندئذ لو اردتم حراكاً لا تقوون وتجدون في وجوهكم الابواب موصدة والمسالك مسدودة لا نجاة ولا مخرج »

« يا قوم هوّن الله مصابكم تشكون من الجهل ولا تنفقون على التعليم نصف ما تصرفون على التدخين تشكون من الحكام وهم اليوم منكم فلا تسعون في اصلاحهم . تشكون فقد الرابطة ولكم روابط من وجوه لا تفكرون في احكامها . تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل . هل ترجون الصلاح وانتم يخادع بعضكم بعضاً ولا تخدعون الاّ انفسكم . ترضون بادنى المعيشة عجزاً تسمونه قناعة وتهملون شؤونكم تهاوناً تسمونه توكلاً تموهون عن جهلكم الاسباب بقضاء الله وتدفعون عار المسببات بعطفها على القدر الا والله ما هذا شأن البشر

« يا قوم سامحكم الله . لا تظاموا الاقدار وخافوا غيرة المنعم الجبار . ألم يخلقكم احراراً لا يثقلكم غير النور والنسيم فأبيتم الا ان تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الاقوياء .

لو شاء كبيركم ان يحمّل صغيركم كرة الارض لحنى له ظهره ولو شاء ان يركبه لطأطأ له رأسه ماذا استفدتم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله وماذا تؤملون من تقبيل الاذيال والاعتاب. أليس منشأ هذا الصغار والهوان هو ضعف ثقتكم بانفسكم كانكم عاجزون عن تحصيل ما تقوم به الحياة وحسب الحياة لقيمات من نبات تقمن ضلع ابن آدم وقد بذلها الخلاق لاضعف الحيوان : فما بال الرجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذي لا ينال من الكبير مراده الا بالتذلل والبكاء او موضع الشيخ الفاني الذي لا ينال حاجته الا بالتملق والدعاء »

« يا قوم رفع الله عنكم المكروه ما هذا التفاوت بين افرادكم وقد خلقكم ربكم اكفاء في البنية اكفاء في القوة اكفاء في الطبيعة اكفاء في الحاجات لا يفضل بعضكم بعضاً الا بالفضيلة لا ربوبية بينكم ولا عبودية والله ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم : ولو درى الصغير بوهمه العاجز بوهمه : ما في نفس الكبير من الخوف منه لزال الاشكال وقضي الامر الذي فيه تختلفون وفيه تشقون »

« يا قوم جعلكم الله من المهتدين . كان اجدادكم

لا ينحنون الا ركوعاً لله وانتم تسجدون لتقبيل ارجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان . واجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين اعزاء وانتم احياء معوجة رقابكم اذلاء البهائم تودّ لو تنتصب قاماتها وانتم من كثرة الخضوع كادت تصير ايديكم قوائم . النبات يطلب العلوّ وانتم تطلبون الانخفاض . لفظتكم الارض لتكونوا على ظهرها وانتم حريصون على ان تنغرسوا في جوفها . فان كانت هذه بغيتكم فاصبروا قليلاً لتناموا فيها طويلاً »

« يا قوم الهمكم الله الرشد . متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الارض الى السماء انظاركم وتميل الى التعالي نفوسكم فيستقل كل انسان منكم بذاته يملك ارادته واختياره ويثق بربه ونفسه لا يتكل على احد من خلق الله اتكال الغاصب على مال الغافل او الكلّ على سعي العامل بل يعتمد على المبادلة والتعاوض وحينئذ يظهر بينكم حكم التضامن والتقاضي فتصيرون بنعمة الله اخواناً »

« يا قوم ابعد الله عنكم المصائب وبصركم بالعواقب ان كانت المظالم غلت ايديكم وضيقت انفاسكم حتى صغرت نفوسكم

وهانت عليكم هذه الحياة واصبحت لا تساوي عندكم الجد والجهد وامسيتم لا تبالون اتعيشون ام تموتون . فهلا تخبروني لماذا تحكّمون فيكم الظالمين حتى في الموت : اليس لكم من الخيار ان تموتوا كما تشاءون لا كما يشاء الظالمون هل سلب الاستبداد ارادتكم حتى في الموت . كلا والله : ان انا احببت الموت اموت كما احب لئيماً او كريماً حتفاً او شهيداً فان كان الموت ولا بد فلماذا الجبانة وان اردت الموت فليكن اليوم قبل الغد وليكن بيدي لا بيد عمرو . أليس

وطعم الموت في شيء حقير كطعم الموت في شيء عظيم

« ياقوم اناشدكم الله الاّ اقول حقاً اذا قلت انكم لا تحبون الموت بل تحرصون على الحياة ولكنكم تجهلون الطريق فتهربون من الموت الى الموت ولو علمتم السبيل لعلمتم ان الهرب من الموت موت وطلب الموت حياة . وان الخوف من التعب تعب والاقدام على التعب راحة وان الحرية هي شجرة الخلد وسقياها قطرات من الدم المسفوح : والاسارة هي شجرة الزقوم وسقياها انهر من دم المخاليق المخانيق

« ياقوم واعنّي منكم المسلمين قال نبيكم الكريم عليه

افضل الصلاة والتسليم (لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملنَ الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب) وقال (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده وان لم يستطع فبلسانه وان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان) »

وانتم تعلمون اجماع ائمة مذاهبكم كلها على ان انكر المنكرات بعد الكفر هو الظلم الذي فشى فيكم ثم قتل النفس ثم وثم وقد اوضح العلماء ان تغيير المنكر بالقلب هو بغض المتلبس به بغضاً في الله . بناء عليه فمن يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطر او يجامله ولو بالسلام يكون قد خسر اضعف الايمان وما بعد الاضعف الا العدم اي فقد الايمان والعياذبالله

ولا اظنكم تجهلون ان كلمة الشهادة والصوم والصلوة والحج والزكاة كلها لا تغني شيئاً مع فقد الايمان : انما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر قياماً بعادات وتقليدات وهوسات تضيع بها الاموال والاوقات

بناء عليه فالدين يكلفكم ان كنتم مسلمين والحكمة تلزمكم ان كنتم عاقلين ان تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهدكم ولا اقل في هذا الباب من ابطانكم البغضاء للظالمين

والفاسقين : وأظنكم اذا تأملتم قليلاً ترون هذا الدواء السهل المقدور لكل انسان منكم يكفي لانقاذكم مما تشكون .والقيام بهذا الواجب متعين على كل فرد منكم بنفسه : ولو اهمله كافة المسلمين . ولو ان اجدادكم الاوّلين قاموا به : لما وصلتم الى ما انتم عليه من الهوان

« ياقوم واعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين : ادعوكم الى تناسي الاساآت والاحقاد : وما جناه الآباء والاجداد : فقد كفى ما فعل ذلك على ايدي المثيرين واجلكم من ان لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وانتم المتنورون السابقون : فهذه امم اوستريا وامريكا قدهداها العلم لطرائق شتى واصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الاداري : فما بالنا نحن لا نفتكر في ان نتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الاعجام والاجانب ودعونا ياهؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء : دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الاخرى فقط :دعونا نجتمع على كلمات سواء

الا وهي (فلتحي الامة فليحي الوطن فلنحي طلقاء اعزاء »

ادعوكم واخص منكم النجباء للتبصر والتبصير فيما اليه المصير اليس مطلق العربي اخف استحقاراً لاخيه من الغربي: هذا الغربي قد اصبح مادياً لا دين له غير الكسب فما تظاهره مع بعضنا بالاخاء الديني الا مخادعة وكذباً : هؤلاء الفرنسيس يطاردون اهل الدين ويعملون على انهم يتناسونه بناء عليه لا تكون دعواهم الدين في الشرق الا كما يغرّد الصياد وراء الاشباك : الغربي ارقى من الشرقي علماً وثروة ومنعة فله على الشرقيين اذا واطنهم السيادة الطبيعية : اما الشرقيون فيما بينهم فمتقاربون لا يتغابنون . الغربي يعرف كيف يسوس وكيف يتمتع وكيف يأسر وكيف يستأثر فمتى رأى فيكم استعداداً واندفاعاً لمجاراته أو سبقه ضغط على عقولكم لتبقوا وراءه شوطاً كبيراً كما يفعل الروس مع البولونيين واليهود والتاتار: وكما هو شأن دول الاستعمار . الغربي مهما مكث في الشرق لا يخرج عن انه تاجر مستمتع فيأخذ فسائل الشرق ليغرسها في بلده التي لا يفتأ يفتخر برياضها ويحنّ الى ارباضها

قد مضى على الهولنديين في الهند وجزائرها وعلى الروس

في قازان مثل ما أقمنا في الاندلس ولكن ما خدموا العلم والعمران بعشر ما خدمناهما : ودخل الفرنساويون الجزائر منذ سبعين عاماً ولم يسمحوا بعد لاهلها بجريدة واحدة تقرأ : نرى الانكليزي في بلادنا يفضل قديد بلاده وسمك بحاره على طري لحمنا وسمكنا فهلا والحالة هذه تبتصرون يا أولي الالباب

*
* *

وانت أيها الشرق الفخيم رعاك الله : ما ذا دهاك ماذا اقعدك عن مسراك : أليست أرضك تلك الارض ذات الجنان والافنان ومنبت العلم والعرفان . وسماؤك تلك السماء مصدر الانوار ومهبط الحكمة والاديان . وهواؤك ذاك النسيم العدل لا العواصف والضباب . وماؤك ذاك العذب الغدق لا الكدر ولا الاجاج

رعاك الله يا شرق : ما ذا اصابك فاختل نظامك والدهر ذاك الدهر ما غير وضعك ولا بدل شرعه فيك . ألم تزل مناطقك هي المعتدلة وبنوك هم الفائقون فطرةً وعدداً . اليس نظام الله فيك على عهده الاول ورابطة الاديان في بنيك

محكمة قويمة مؤسسة على عبادة الصانع الوازع. أليست معرفة المنعم حقيقة راهنة أشرقت فيك شمسها ايدت بها عز النفس واحكمت بها حب الوطن وحب الجنس

رعاك الله يا شرق : ما ذا عراك وسكن منك الحراك ألم تزل ارضك واسعة خصبة . ومعادنك وافية غنية . وحيوانك رابياً متناسلاً . وعمرانك قائماً متواصلاً . وبنوك على ما ربيتهم اقرب للخير من الشر أليس عندهم الحلم المسمى عند غيرهم ضعفاً في القلب وعندهم الحياء المسمى بالجبانة وعندهم الكرم المسمى بالاتلاف وعندهم القناعة المسماة بالعجز وعندهم العفة المسماة بالبلاهة : وعندهم المجاملة المسماة بالذل . نعم ما هم بالسالمين من الظلم ولكن فيما بينهم ولا من الخداع ولكن لا يفتخرون به ولا من الاضرار ولكن مع الخوف من الله

رعاك الله يا شرق : لا نرى من غير الدهر فيك ما يستوجب هذا الشقاء لبنيك ويستلزم ذلهم لبني اخيك فلماذا قد اصبحت اذا انقطع عنك مدد اخيك بمصنوعاته يبقى ابناؤك عراة حفاة في ظلام بل يمنيهم فقد الحديد بالرجوع الى العصر النحاسي بل الحجري الموصوف بعصر التعفين

رعاك الله يا شرق : بل رعى الله اخاك الغرب العائل بنفسه والعائل فيك وقاتل الله الاستبداد بل لعن الله الاستبداد المانع من الترقي في الحياة المنحط بالامم الى اسفل الدركات . ألا بعداً للظالمين

رعاك الله يا غرب: وحيّاك وبياك :قد عرفت لاخيك سابق فضله عليك فوفيت وكفيت واحسنت الوصاية وهديت وقد اشتدّ ساعد بعض اولاد اخيك فهلا ينتدب بعض شيوخ احرارك لاعانة انجاب اخيك على هدم ذاك السور سور الشؤوم والشرور ليخرجوا باخوانهم الى ارض الحياة ارض الانبياء الهداة فيشكرون فضلك والدهر مكافأة

يا غرب لا يحفظ لك الدين غير الشرق ان دامت حياته بحريته : وفقد الدين يهددك بالخراب القريب فما ذا اعددت للفوضيين اذ صاروا جيشاً جراراً هل تعد لهم الموادالمتفرقعة وقد جاوزت انواعها الالف ام تعد لهم الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصبيان

يا قوم واريد بكم شباب اليوم رجال الغد شباب الفكر رجال الجد اعيذكم من الخزي والخذلان بتفوقة الاديان

واعيذكم من الجهل جهل ان الدينونة لله وهو سبحانه ولي السرائر والضمائر ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة

اناشدكم يا ناشئة الاوطان ان تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قواهم واسألكم عفوهم من العتاب والملام لانهم مرضى مبتلون مثقلون بالقيود ملجمون بالحديد يقضون حياةً خير ما فيها انهم آباؤكم .

قد علمتم يا نجباء من طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جملاً كافية للتأمل والتدبر فاعتبروا بنا واسألوا الله العافية . نحن الفنا الادب مع الكبير ولو داس رقابنا : الفنا الثبات ثبات الاوتاد تحت المطارق : الفنا الانقياد ولو الى المهالك : الفنا ان نعتبر التصاغر ادباً والتذلل لطفاً والتملق فصاحة واللكنة رزانة وترك الحقوق سماحة وقبول الاهانة تواضعاً والرضاء بالظلم طاعة ودعوى الاستحقاق غروراً والبحث عن العموميات فضولاً ومدّ النظر الى الغد املاً طويلاً والاقدام تهوراً والحمية حماقة والشهامة شراسة وحرية القول وقاحة وحرية الفكر كفراً وحب الوطن جنوناً .

اما انتم حماكم الله من السوء فنرجو لكم ان تنشأوا على غير ذلك.

ان تنشأوا على التمسك بأصول الدين دون اوهام المتفننين فتعرفوا قدر نفوسكم في هذه الحياة فتكرمونها وتعرفوا قدر ارواحكم وانها خالدة تثاب وتجزى وتتبعوا سنن النبيين فلا تخافون غير الصانع الوازع العظيم . ونرجو لكم ان تبنوا قصور فخاركم على معالي الهمم ومكارم الشيم لا على عظام نخرة : وان تعلموا انكم خلقتم احراراً لتموتوا كراماً فاجهدوا ان تحيوا تلكما اليومين حياة رضية يتسنى فيها لكل منكم ان يكون سلطاناً مستقلاً في شؤونه لا يحكمه غير الحق : وشريكا اميناً لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء : وولداً باراً لوطنه لا يبخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله : ومحباً للانسانية يعمل على ان خير الناس انفعهم للناس : يعلم ان الحياة هي العمل ووباء العمل القنوط : والحياة هي الامل ووباء الامل التردد : ويفقه ان القضاء والقدر هما عند الله ما يعلمه ويمضيه وهما عند الناس السعي والعمل : ويوقن ان كل أثر على ظهر الارض من عمل اخوانه البشر فلا يتخيل في نفسه عجزاً ولا يتوقع الا خيراً وخير الخير ان يعيش حراً او يموت

يا قوم جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد . هذا خطابي

اليكم فيما هو الترقي وما هو الانحطاط فان وعيتم ولو شذرات فيابشراي والسلام عايكم والافياضياع الانفاس وعلى الرفاة السلام

***

الاستبداد الذي يبلغ في الانحطاط بالامة الى غاية أن تموت ويموت هو معها كثير الشواهد في قديم الزمان وحديثه. اما بلوغ الترقي بالامم الى المرتبة القصوى السامية التي تليق بالانسانية فهذا لم يسمح الزمان حتى الآن بامة تصلح مثالاً له. حيث لم توجد امة حكمت نفسها برأيها العام حكماً لا يشوبه نوع من الاستبداد ولو باسم الوقار والاحترام او بنوع من الاغفال ولو ببذر الشقاق الديني او الجنسي بين الناس فكأن الحكمة الالهية لم تزل ترى البشر غير متأهلين لنوال سعادة الأخوة العمومية بالتحابب بين الافراد والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات

نعم وجد للترقي القريب من الكمال بعض امثال قليلة في القرون الغابرة كالجمهورية الثانية للرومان وكعهد الخلفاء الراشدين وكالازمنة المنقطعة في عهد بعض الملوك المنظمين لا الفاتحين مثل انيشروان وعبد الملك الاموي ونور الدين

الشهيد وبطرس الكبير. وكبعض الجمهوريات الصغيرة والممالك الموفقة لاحكام التقييد الموجودة في هذا الزمان

واني اقتصر على وصف منتهى الترقي الذي وصلت اليه تلك الامم وصفاً اجمالياً وأترك للمطالع ان يوازن بينها ويقيس عليها درجات سائر الامم

وربما يستريب في ذلك المطالع المولود في ارض الاستبداد الذي لم يدرس احوال الامم في الوجود ولا عتب عليه فانه كالمولود أعمى لا يدرك للمناظر البهية معنى

قد بلغ الترقي في الاستقلال الشخصي في ظلال الحكومات العادلة لان يعيش الانسان المعيشة التي تشبه في بعض الوجوه ما وعدته الاديان لاهل السعادة في الجنان حتى ان كل فرد يعيش كانه خالد بقومه ووطنه وكانه امين على كل مطلب

(١) أمين على السلامة في جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لا تغفل عن محافظته بكل قوتها في حضره وسفره

(٢) امين على الملذات الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة في الشؤون العامة المتعلقة بالترويضات الجسمية والنظرية

والعقاية حتى يخال له ان تسهيل الطرقات والتزيينات البلدية والمتنزهات والمنتديات والمدارس والجامع ونحو ذلك قد وجدت كلها لاجله خاصة

(٣) امين على الحرية كانه خلق وحده على سطح هذه الارض فلا يعارضه معارض فيما يخص شخصه من دين وفكر وعمل

(٤) امين على النفوذ كأنه سلطان عزيز فلا ممانع له ولا معاكس في تنفيذ مقاصده النافعة في الامة التي هو منها

(٥) امين على المزية كأنه في امة يساوي جميع افرادها منزلة وشرفاً فلا يفضل هو على احد ولا يفضل احد عليه الا بمزية سلطان الفضيلة فقط

(٦) امين على العدل كانه هو القابض على ميزان الحقوق فلا يخاف تطفيفاً وهو المثمن فلا يحذر بخساً وهو المطمئن على انه اذا استحق ان يكون ملكاً صار ملكاً واذا جنى جناية نال جزاءه لا محالة

(٧) امين على المال والملك كأن ما احرزه بوجهه المشروع قليلاً كان او كثيراً قد خلقه الله لاجله فلا يخاف عليه كما انه

تقلع عينه ان نظر الى مال غيره

(٨) امين على الشرف بضمان القانون بنصرة الامة يبذل الدم فلا يرى تحقيراً الا لدى وجدانه ولا يعرف طعماً لمرارة الذل والهوان والصغار

***

وقد يبلغ الترقي في التركيب بالعائلة والعشيرة ان يعيش الانسان معتبراً نفسه عضواً حقيقياً من جسم . فالجسم الحيّ عند المتمدنين هو مجموع الامة . والانقسام الى عائلات وافراد هو من قبيل انقسام المدينة الى بيوت والبيوت الى مرافق

وكما انه لا بد لكل مرفق من وظيفة يصلح لها والا كان بناؤه عبثاً يستحق الهدم كذلك الافراد في الامم لا بد ان يعد كل منهم نفسه لوظيفة في قيام حياة قومه . ولهذا يكون من لا يصلح لوظيفة او لا يقوم بما يصلح له بل يريد ان يعيش كلا عليهم لا عن عجز طبيعي حقيراً يستحق الموت لا الشفقة لانه كالدرن في الجسم او الزائد من الظفر يستحقان الاخراج والقطع

ولهذا المعنى حرمت الشرائع السماوية الملاهي التي ليس فيها ترويض والسكر المعطل عن العمل والمقامرة والربا لانهما ليسا من نوع العمل والتبادل فيه. وقد فضل الناس الكناس عن الحجام لان صنعته انفع للجمهور وهكذا صانع الخبز افضل من ناظم الشعر

الانسان الحر مالك لنفسه تماماً ومملوك لقومه تماماً. ومتى يبلغ ترقي التركيب في امة لهذه المرتبة بحيث يصير كل فرد مستعداً لان يفتدي امته بماله وروحه : فعندئذ تصبح الامة في غنى عن ماله وروحه

***

اما الترقي في العز بالعلم والمال فيتميز على باقي الترقيات تميز الرأس على باقي اعضاء الجسم فكما ان الرأس باحرازه مركزية العقل ومركزية اكثر الحواس تميز على باقي الاعضاء واستخدمها في حاجاته . فكذلك الحكومات المنتظمة يترقى أفرادها ومجموعها في العلم والثروة فيكون لهم سلطان طبيعي على الافراد او الامم التي انحط بها الاستبداد المشؤوم الى حضيض الجهل والفقر

بقي علينا بحث الترقي في الكمالات بالخصال والاثرة وبحث الترقي الذي يتعلق بالروح اي بما وراء هـذه الحياة ويرقى اليه الانسان على سلم الرحمة والحسنات فهذه ابحاث طويلة الذيل ومنابعها حكميات الكتب السماوية ومدونات الاخلاق وتراجم مشاهير الامم

واكتفي بالقول في هذا النوع انه يبلغ بالانسان مرتبة ان لا يرى لحياته أهمية الا بعد درجات : الاولى منها حياة أمته ثم حريته ثم شرفه ثم عائلته ثم وثم وقد تشمل احساساته عالم الانسانية كله : قومه البشر ووطنه الارض كما انه قد يترفع عن الامارة لما فيها من معنى الكبر وعن التجارة لما فيها من التمويه والتبذل فيرى الشرف كل الشرف في القلم ثم المحراث ثم المطرقة

وخلاصة القول ان الامم التي اسعدها جدها لتبديد استبدادها نالت من الشرف الحسي والمعنوي ما لا يخطر على فكر اسراء الاستبداد. فهذه بلجيكا أبطلت التكاليف الاميرية برمتها مكتفية في نفقاتها بنماء فوائد بنك الحكومة . وهذه سويسره يصادفها كثيراً ان لا يوجد في سجونها محبوس .

وهذه امريكا أثرت حتى كادت تخرج الفضة من مقام النقد الى مقام المتاع. وهذه اليابان اصبحت تستنزف قناطير الذهب من اوربا وأمريكا ثمن امتيازات اختراعاتها وطبع مؤلفاتها

نعم وقد نالت ايضاً تلك الامم حظاً من الملذات الحقيقية التي لا تخطر على فكر الاسراء كلذة العلم وتعليمه ولذة المجد والحماية ولذة الاثراء والبذل ولذة احراز الاحترام في القلوب ولذة نفوذ الرأي الصائب الى غير هذه من الملذات الروحية. واما الاسراء والجهلاء فملذاتهم مقصورة على مشاركة الوحوش الضارية في جعلها بطونها مقابر للحيوانات ومزابل للنباتات وعلى استفراغهم الشهوة كأن اجسامهم خلقت دملاً على اديم الارض وظيفتها توليد الصديد ودفعه

وانفع ما بلغه الترقي في البشر هو احكامهم اصول الحكومات المنتظمة وبناؤهم سداً متيناً في وجه الاستبداد وذلك بجعلهم لا قوة فوق الشرع ولا نفوذ لغير الشرع والشرع هو حبل الله المتين . وبجعلهم قوة التشريع في يد الامة والامة لا تجتمع على ضلال. وبجعلهم المحاكم تحاكم السلطان والصعلوك على السواء وتكاد تحاكي في عدالتها المحكمة الكبرى الالهية.

وبجعلهم مأموري الحكومة القائمين بالاعمال العمومية لا سبيل لهم على تعدي حدود وظائفهم كأنهم ملائكة لا يعصون امراً وبجعلهم الامة يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها لا تغفل ولا تتسامح كما ان الله عز وجل لا يغفل عما يفعل الظالمون .

وهكذا لما اهتدوا لاصلاح شؤونهم نجاهم الله من الهلاك . هلاك الاستبداد . لانه تعالى شأنه لا يهلك القرى بظلم واهلها مصلحون

هذا مبلغ الترقي الذي وصلت اليه الامم منذ عرف التاريخ على انه لم يقم دليل الى الآن على ترقي البشر في السعادة الحيوية عما كانوا عليه في العصور الخالية حتى الحجرية حتى منذ كانوا عراة يسرحون اسراباً . والآثار المشهودة لا تدل على اكثر من ترقي العلم والعمران وهما آلتان كما يصلحان للاسعاد يصلحان للاشقاء وترقيهما هو من سنة الكون التي ارادها الله تعالى لهذه الارض وبنيها ووصف لنا ما سيبلغ اليه ترقى زينتها واقتدار اهلها بقوله عز شأنه (حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً او نهاراً فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالامس) وهذا يدل على

ان الدنيا وبنيها لم يزالا في مقتبل الترقي لا كما يظن الخاملون. الذين كأنهم خلقوا اذى اوسدى

الاستبداد والتخلص منه

ليس لنا في هذا الباب مدرسة أعظم من التاريخ الطبيعي. والعمومي ولا برهان أقوى من الاستقراء : ومن تتبعهما يرى ان الانسان عاش دهراً طويلاً في حالة طبيعية بطوناً واسراباً يسوسه الشيوخ الاكثر خبرة ويقوده الاقوياء بنية . ثم عاش حيناً من الدهر في حالة بدوية عشائر وقبائل يسوسه شيوخ البطون والافخاذ تحت رئاسة اميرمنفذ لما يقررون لا يداخلهم في الرأي غالباً وهم يتبعون نظاماً بسيطاً ادارياً ولهم قواعد قليلة قضائية رائدها العدالة الوجدانية او النظام التقليدي . ولم يزل نصف الانسان على تلكما الحالتين الى الآن

والنصف الثاني من البشر أرادوا التوسع في المعيشة فسجنوا أنفسهم بجدران القرى والمدن فتوسعوا ولكن في الشقاء والذل لان اكثرهم لم يهتدوا حتى الآن للطريق المثلى في سياسة جمعياتهم . وهذا هو سبب تنوع اشكال الحكومات.

وعدم استقرار امة على شكل مرضي عام : انما هي تقلبات على سبيل التجريب وبحسب تغلب احزاب الاجتهاد اواحزاب الاستبداد

وتقرير شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة في البشر وهو المعترك الاكبر لافكار الباحثين : والميدان الذي قل في البشر من لا يجول فيه : على فيل من الفكر او جمل من الجهل او فرس من الفراسة أو على حمار من الحمق : حتى جاء الزمن الاخير فجال فيه انسان الغرب جولة المغوار الممتطي في التدقيق مراكب البخار فقرر قواعد أساسية في هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب وحصحص فيها الحق اليقين فصارت تعد من المقررات الاجماعية عند الامم المترقية : على ان هذه الامم لم تزل أيضاً منقسمة الى احزاب سياسية يختلفون شيعاً في وجوه تطبيق اصول تلك القواعد وفروعها على احوالهم الخصوصية . وهذه القواعد وان كانت قد صارت قضايا بديهية في الغرب لم تزل مجهولة أو غريبة او منفوراً منها في الشرق . لانها عند الاكثرين منهم لم تطرق سمعهم وعند البعض لم تنل التفاتهم وتدقيقهم وعند آخرين لم تحز قبولاً

لانهم ذوو غرض او مسروقة قلوبهم او في قلوبهم مرض

واني اطرح لتدقيق المطالعين رؤوس مسائل بعض المباحث التي تتعلق بها الحياة السياسية . وقبل ذلك اذكرهم بانه قد سبق في تعريف الاستبداد بانه هو الحكومة التي يوجد بينها وبين الامة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم . كما أستلفت نظرهم الى أنه لاعبرة بيمين من يتولى السلطة أياً كان ولا بعهده على مراعاة الدين والتقوى والحق والشرف والعدالة ومقتضيات المصلحة العامة وأمثال ذلك من القضايا الكلية المبهمة التي تدور على ألسنة كل برّ وفاجر . وما هي في الحقيقة الا كلام فارغ : لان المجرم لا يعدم تأويلاً ولان من طبيعة القوة الاعتساف ولان القوة لا تقابل الا بالقوة . ثم فلنرجع للمباحث التي اريد طرحها لتدقيق المطالعين وهي

١ (مبحث ما هي الامة أي الشعب) هل هي ركام مخلوقات نامية أو جمعية عبيد لمالك متغلب . أم هي جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة

٢ (مبحث ما هي الحكومة) هل هي انسان واعوانه

يتسلطون على الرقاب والدماء والشرف والمال يفعلون مايشاؤون. ام هي وكالة سياسية تقام من قبل الامة لاجل ادارة شؤونها المشتركة العامة

٣ (مبحث ما هي الحقوق العمومية) هل للحكومة صفة المالكية : ام صفة الامانة والنظارة على الاملاك العمومية مثل الاراضي والمعادن والانهر والسواحل والقلاع والمعابد والاساطيل والمعدات : ومثل حقوق المعاهدات والاستعمار ومثل حقوق اقامة الحكومة وتأمين العدالة وتسهيل الترقي الاجتماعي وايجاد التضامن الافرادي : الى غير ذلك مما يحق لكل فرد ان يتمتع به وان يطمئن عليه

٤ (مبحث التساوي في الحقوق) هل للحكومة التصرف في الحقوق العامة المادية والادبية كما تشاء بذلاً وحرماناً . أم تكون الحقوق محفوظة للجميع على التساوي والشيوع أو موزعة على الفصائل والبلدان والصنوف والاديان بنسبة عادلة

٥ (مبحث الحقوق الشخصية) هل الحكومة تملك السيطرة على الاعمال والافكار . أم أفراد الامة احرار في الفكر مطلقاً وفي الفعل ما لم يخالف القانون الاجتماعي لانهم

ادرى بمنافعهم الشخصية

٦ (مبحث نوعية الحكومة) هل الاصلح هي الملكية المطلقة من كل زمام . ام الملكية المقيدة وما هي القيود : ام الرياسة الانتخابية الدائمة مع الحياة أو الموقتة .وهل تنال بالوراثة او العهد أو الغلبة وهل يكون ذلك كما تشاء الصدفة أم مع وجود شرائط الكفاءة وما هي تلك الشرائط وكيف يصير تحقيق وجودها وكيف يراقب استمرارها

٧ (مبحث ما هي وظائف الحكومة) هل هي ادارة شؤون الامة حسب الرأي والاجتهاد . أم تكون مقيدة بقانون موافق لرغائب الامة وان خالف الاصلح : واذا اختلفت الحكومة مع الامة في اعتبار الصالح والمضر فهل على الحكومة ان تعتزل الوظيفة

٨ (مبحث حقوق الحاكمية) هل للحكومة ان تخصص بنفسها لنفسها ما تشاء من مراتب العظمة ورواتب المال وتحابي من تريد بما تشاء من حقوق الامة وأموالها . أم يكون التصرف في ذلك كله اعطاءً وتحديداً ومنعاً منوطاً بالامة

٩ (مبحث طاعة الامة للحكومة)هل للحكومة تكليف

الانقياد المطلق : أم عليها الاعتناء بوسائل التفهم والاقناع ولو اجمالاً لتتأتى الطاعة باخلاص

١٠ (مبحث توزيع التكايفات) هل يكون وضع الضرائب مفوضاً لرأي الحكومة . أم الامة تقرر النفقات اللازمة وتعين موارد المال وترتب طرائق جبايته وحفظه

١١ (مبحث اعداد المنعة) هل يكون اعداد القوة بالتجنيد والتسليح استعداداً للدفاع مفوضاً لارادة الحكومة اهمالاً او اقلالاً او اكثاراً او استعمالاً على قهر الامة ام يحرص على ان يكون ذلك برأي الامة وتحت امرها بحيث تكون القوة منفذة رغبة الامة لا رغبة الحكومة

١٢ (مبحث المراقبة على الحكومة) هل تكون الحكومة لا تسأل عما تفعل . ام يكون للامة حق السيطرة عليها لان الشأن شأنها فلها ان تنيب عنها وكلاء لهم حق الاطلاع على كل شيء وتوجيه المسئولية على اي كان

١٣ (مبحث حفظ الامن العام) هل يكون الشخص مكلفاً بحراسة نفسه ومتعلقاته . ام تكون الحكومة مكلفة بحراسته مقيماً ومسافراً حتى من بعض طواريء الطبيعة

بالحيلولة لا بالمجازاة والتعويض

١٤ (مبحث حفظ السلطة في القانون) هل يكون للحكومة ايقاع عمل اكراهي على الافراد برأيها اي بدون الوسائط القانونية . ام تكون السلطة منحصرة في القانون الا في ظروف مخصوصة وموقتة

١٥ (مبحث تأمين العدالة القضائية) هل يكون العدل ما تراه الحكومة . ام ما يراه القضاة المصون وجدانهم من كل مؤثر غير الشرع والحق ومن كل ضغط حتى ضغط الرأي العام

١٦ (مبحث حفظ الدين والآداب) هل يكون للحكومة ولو القضائية سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر ام تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين والجنسية واللغة والعادات والآداب العمومية على استعمال الحكمة ما اغنت عن الزواجر ولا تتداخل الحكومة في امر الدين ما لم تنتهك حرمته

١٧ (مبحث تعيين الاعمال بقوانين) هل يكون في الحكومة من الحاكم الاكبر الى البوليس من يطلق له عنان

التصرف برأيه وخبرته . ام يلزم تعيين الوظائف كلياتها وجزئياتها بقوانين صريحة واضحة لا تسوغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمة الا في حالات الخطر الكبير

١٨ (مبحث كيف توضع القوانين) هل يكون وضعها منوطاً برأي الحاكم الاكبر او رأي جماعة ينتخبهم لذلك : ام يضع القوانين جمع منتخب من قبل الامة لانهم ادرى بحاجاتهم وما يلائم طبائعهم وصوالحهم ويكون حكمه عاماً او مختلفاً على حسب تخالف الاقوام وتغير الظروف والزمان

١٩ (مبحث ما هو القانون وقوته) هل القانون هو احكام يحتج بها القوي على الضعيف : ام هو احكام تتساوى لديها كل طبقات الناس وله سلطان نافذ قاهر مصون من مؤثرات الاغراض والشفاعة والشفقة محترم عند الكافة مضمون الحماية من قبل كل افراد الامة

٢٠ (مبحث توزيع الاعمال والوظائف) هل يكون ذلك مخصوصاً باقارب الحاكم او عشيرته او مقربيه : ام توزع كتوزيع الحقوق العامة على كافة القبائل والفصائل ولو مناوبة مع ملاحظات الاهمية والعدد بحيث يكون رجال الحكومة

انموزجاً من الامة او هم الامة مصغرة : وعلى الحكومة ايجاد الكفاءة والاعداد ولو بالتعليم الاجباري

٢١ (مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم) هل يجمع بين سلطتين او ثلاث في واحد . ام تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها باتقان ولا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة

٢٢ (مبحث الترقي في العلوم والمعارف) هل يترك للحكومة صلاحية الضغط على العقول كي لا يقوى نفوذ الامة عليها . ام تحمل على توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائي عمومياً بالتشويق أو الاجبار ثم التوسيع مسهلاً . وجعل التعليم والتعلم حراً مطلقاً

٢٣ (مبحث التوسيع في الزراعة والصنائع والتجارة) هل يترك ذلك للنشاط المفقود في الامة . ام تلزم الحكومة بالاجتهاد في تسهيل مضاهاة الامم السائرة لا سيما المزاحمة والمجاورة كيلا تهلك الامة بالحاجة لغيرها او تضعف بالفقر

٢٤ (مبحث السعي في العمران) هل يترك ذلك لاهمال الحكومة او انهماكها فيه . ام تحمل على اتباع الاعتدال المتناسب مع الثروة العمومية بدون التفات للتفاخر بالتزينات

البلدية الغير مفيدة مادياً

٢٥ (مبحث السعي في رفع الاستبداد) هل ينتظر ذلك من الحكومة ذاتها : ام نوال الحرية ورفع الاستبداد رفعاً لا يترك مجالاً لعودته من وظيفة عقلاء الامة وسراتها

هذه خمسة وعشرون مبحثاً كل منها يحتاج الى تدقيق عميق . وتفصيل طويل وتطبيق على الاحوال والمقتضيات الخصوصية. وقد ذكرت هذه المباحث تذكرةً للكتاب ذوي الالباب وتنشيطاً للنجباء على الخوض فيها بترتيب اتباعاً لحكمة اتيان البيوت من ابوابها وان اقتصر على بعض الكلام فيما يتعلق بالمبحث الاخير منها فقط اعني مبحث السعى في رفع الاستبداد فاقول

***

(١) الامة التي لا يشعر كلها أو اكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية

(٢) الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم باللين والتدريج

(٣) يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد

هذه قواعد رفع الاستبداد وهي قواعد تبعد آمال الاسراء وتسر المستبدين لان ظاهرها يؤمنهم على استبدادهم . ولهذا

اذ كرهم بما قد انذرهم به (الفياري)المشهور في مثل هذا المقام حيث قال لا يفرحنّ المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير . واني أقول ما من جبار قهار الا ويأخذه الله أخذ عزيز منتقم . ثم أقول

مبنى قاعدة كون الامة التي لا يشعر اكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية. ان الامة التي ضربت عليها الذلة والمسكنة حتى صارت كالبهائم او دون البهائم لا تسأل قطعن الحرية .وقد تنقم على المستبد ولكن طلباً للانتقام من شخصه لا طلباً للخلاص من الاستبداد فلا تستفيد شيئاً انما تستبدل مرضاً بمرض كمغص بصداع .وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر فاذا نجحت لا يغسل هذا السائق يداه الا بماء الاستبداد فلا تستفيد أيضاً شيئاً انما تستبدل مرضاً مزمناً بمرض حدّ. وربما تنال الحرية عفواً فكذلك لا تستفيد منها شيئاً حيث لا تلبث تلك الحرية ان تنقلب الى استبداد مشوف أشد وطأة كالمريض اذا انتكس

ومبنى قاعدة ان الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم بالحكمة والتدريج : هو ان الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقي الامة في الادراك والاحساس وهذا لا

يتأتى الا بالتعليم والتحميس . كما ان اقناع الفكر العام واذعانه الى غير مألوفه لا يتأتى الا في زمن طويل لان العوام مهما ترقوا في الادراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية الا بعد التروي المديد وربما كانوا معذورين لانهم ألفوا ان لا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة الا الغش والخداع

ثم ان الاستبداد محفوف بانواع القوات التي منها قوة الارهاب . وقوة الجند لا سيما اذا كان الجند غريب الجنس. وقوة المال . وقوة الالفة على القسوة.وقوة رجال الدين.وقوة اهل الثروات . وقوة الانصار من الاجانب . فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يقابل بعصا الفكر العام . ومن طبع الفكر العام أنه اذا فار في سنة يفور في سنة واذا فار في يوم يفور في يوم بناء عليه يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعناد

الاستبداد لا ينبغي ان يقاوم بالعنف كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً علي ان الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجاراً طبيعياً فاذا كان في الامة عقلاء يتباعدون عنها حتى اذا سكنت ثورتها نوعاً قضت وظيفتها في حصد المنافقين يستعملون حينئذ الحكمة في توجيه

الافكار نحو تأسيس العدالة وخير ما تؤسس يكون مع من لا عهد له بالاستبداد ولا علاقة له بالفتنة

العوام لا يتهيجون على المستبد غالباً الا عقب احوال مخصوصة فورية وهي . أوّلاً . عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه . ثانياً . عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوباً ولا يتمكن من الصاق عار الغلب بخيانة بعض القواد . ثالثاً . عقب تظاهر المستبد باهانة الدين اهانة مصحوبة باستهزاء يستلزم حدة العوام . رابعاً . عقب تضييق شديد عام مقاضاة لمال لا يجده حتى اواسط الناس . خامساً . في حالة مجاعة لا يرى الناس فيها مواساة ظاهرة من المستبد. سادساً. عقب ما يستفز الغضب الفوري كتعرضه لناموس العرض او حرمة الجنائز في الشرق وناموس القانون او الشرف الموروث في الغرب . سابعاً . عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قسم كبير من النساء في الاستنصار . ثامناً . عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الامة عدواً لشرفها . الى غير ذلك من الامور المماثلة لهذا

المستبد مهما كان غبياً لا تخفى عليه هذه المزالق ومهما كان عتياً لا يغفل عن اتقائها . كما ان هذه الامور يعرفها اعوانه

ووزراؤه فاذا وجد منهم بعض يريدون له التهلكة يهوّرونه على الوقوع في احداها ويلصقونها به بشهادتهم عوضاً عن ابعادها عنه بالتمويه على الناس . ولهذا يقال ان رئيس وزراء المستبد او رئيس قواده او رئيس الدين عنـده هم اقدر الناس على الايقاع به . وهو يداريهم تحذراً واذا اراد اسقاط احدهم يوقعه بغتة

* * *

ومبنى قاعدة انه يجب قبل مقاومة الاسـتبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد : هو ان معرفة الغاية ولو اجمالاً شرط طبيعي للاقدام على كل عمل : لـكن المعرفة الاجمالية في هذا الباب لا تكفي مطلقاً : بل لا بد من تعيين المطلب تعييناً واضحـاً موافقاً لرأي الـكل أو لرأي الاكثرية التي هي فوق الثلاثة ارباع عدداً او قوة بأس والا فلا يتم الامر حيث اذا كانت الغاية مبهمة نوعاً يكون الاقدام ناقصاً نوعاً واذا كانت مجهولة بالـكلية عند كل قسم من الناس او مخالفة لرأيهم فهؤلاء ينضمون الى المستبد فتكون فتنة شعواء واذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط فتكون الغلبة في جانب المستبد مطلقاً

ثم اذا كانت الغاية مبهمة في الاول فلا بد ان يقع

الخلاف في الآخر فيفسد العمل أيضاً وينقلب الى فتن صماء وانقسام مهلك . ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة واخلاص واشهارها بين الناس والسعي في اقناعهم واستحصال رضائهم بها بل حملهم على النداء بها وطلبها من عند انفسهم . وهذا سبب عدم نجاح الامام علي ومن وليه من ائمة آل البيت رضي الله عنهم ولعل ذلك كان منهم لا عن غفلة بل عن صعوبة المواصلات وفقدان البوستات المنتظمة والمطبوعات اذ ذاك

*
* *

والحاصل ان من الضروري تقرير شكل الحكومة التي يراد ويمكن ان يستبدل بها الاستبداد.وليس هذا بالامر الهين الذي تكفيه فكرة ساعات او فطنة آحاد بل ليس هو باسهل من الفكرة في ترتيب المقاومة . وهذا الاستعداد الفكري النظري لا يكفي ان يكون مقصوراً على الخواص بل لا بد من تعميمه ويبتدي ذلك بعد احساس الامة بآلام الاستبداد ولا شك ان الفرد المتحمس في شأن عمومي مثل محاربة الاستبداد يعدي العشرات والمئات وربما الالوف على حسب قوة براهينه . ثم لما يستفيض بين الامة البحث في القواعد الاساسية السياسية المناسبة لها بحيث يشغل ذلك

افكار كل طبقات الامة ويبقى تحت مخض العقول سنين واعواماً حتى ينضج تماماً . وحتى يبتديء ظهور التلهف الحقيقي على نوال الحرية في الطبقات العليا والتمني في الطبقات السفلى . وحتى يشعر المستبد بالخطر ويأخذ بالتحذر الشديد والتنكيل وحتى تحصل او تستحصل الفرصة المناسبة. فحينئذٍ تكون الامة قد استعدت طبيعياً لقبول اصول ان تحكم نفسها بنفسها وحينئذٍ لها الخيار ان شاءت تكلف المستبد ذاته لاستبدال اصول الاستبداد بالاصول المقررة المهيئة التي تطلبها وترى نجاحها فيها. والمستبد في تلك الحال لا يسعه الا الاجابة طوعاً او كرهاً . وهكذا يتم السير الطبيعي ولا مبدل لسننه فليتبصر العقلاء وليتقي الله المغررون ولا ييأس من رحمة الله عاقل غير خامل

واني اختم هذا البحث بان الله جلت حكمته قد جعل الامم مسؤولة عن اعمال من حكمته عليها وهذا حق . فاذا لم تحسن امة سياسة نفسها اذلها الله لامة اخرى تحكمها كما تفعل الشرائع باقامة القيم على القاصر او السفيه وهذه حكمة ومتى بلغت امة رشدها استرجعت عزها وهذا عدل. وهكذا لا يظلم الله الناس بل الناس هم انفسهم يظلمون

« تمت »



Bibliotheca Alexandrina
0563196